الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

* المركز الجامعي سي الحواس – بريكة -*

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية *

* قسم العلوم الإنسانية *

* السنة الثانية تاريخ *

*** مطبوعة محاضرات مقياس تاريخ المغرب العربي الحديث ما بين القرنين 16-19م.***

*** إعداد الدكتور: تومي طاهر *.**

* السنة الجامعية1443 /1444هـ/2022-2023م *.

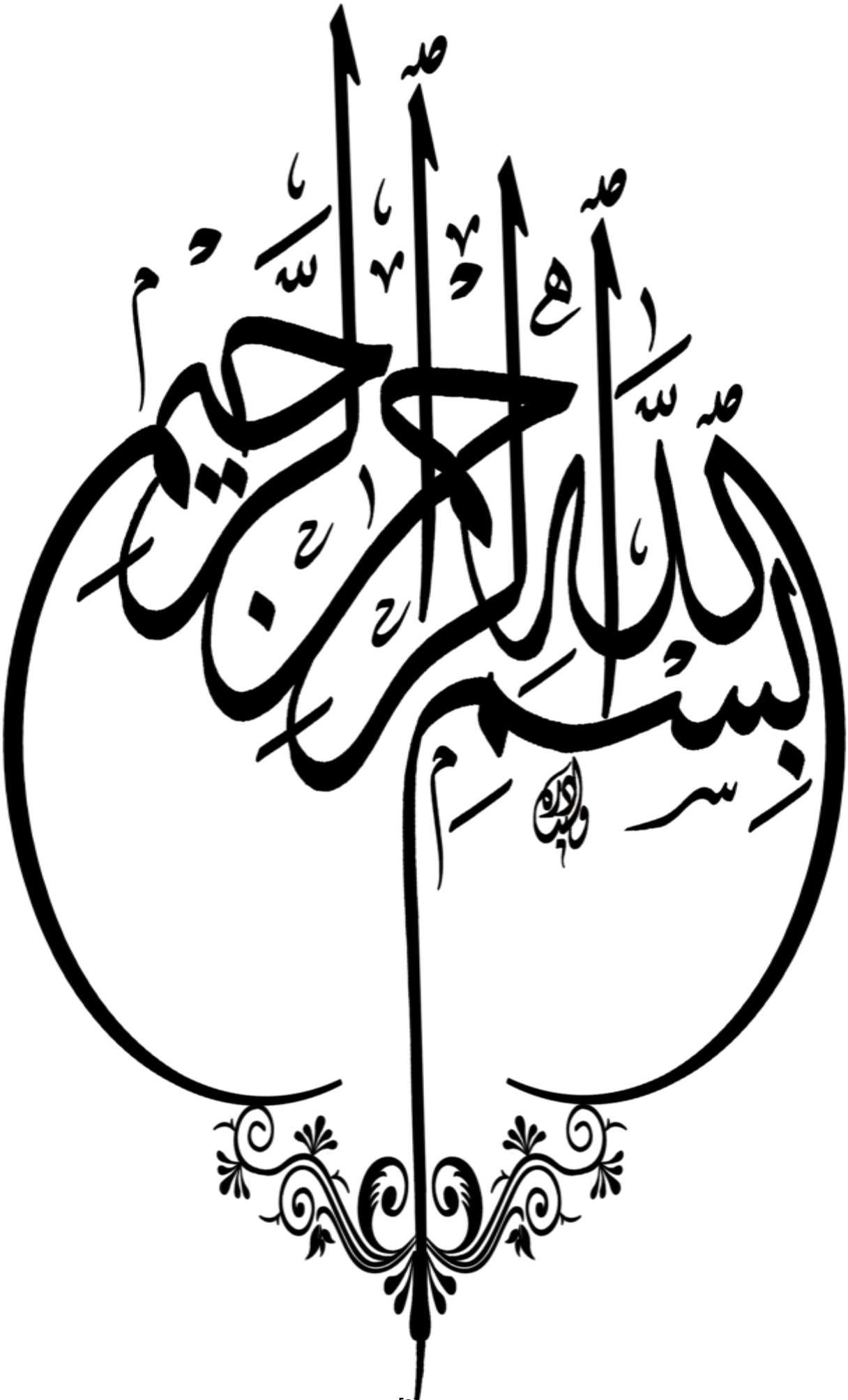
بسم الله الرحمن الرحيم

مباشرة بعد أن تمت الوحدة الإسبانية وتثبتت أركانها وقامت مؤسساتها، خاصة العسكرية منها، بدأ الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند بتحقيق مشـــروعهما الذي تم من أجله زواجهما السياسي، والهادف أساسا إلى استرجاع جميع الأراضي الإسبانية الباقية تحت سيطرة المسلمين، والتضييق عليهم وحصارهم ودحرهم رويدا رويدا حتى القضاء عليهم نهائيا، خاصة وأن الفرصة كانت مناسبة بعد الضعف الشديد والتمزق الذي ميز حكام ما تبقى من المسلمين بإسبانيا، حيث بدأ الإســـبان زحفهم وقتال بقايا الجيوش الإســـلامية حتى وصـــلوا أخيرا إلى مملكة غرناطة التي اســـتطاعوا احتلالها والقضـــاء نهائيا على الحكم الإســـلامي بها في جانفي 1492م، وبذلك تمت الوحدة الإسبانية عمليا ابتداء من هذا التاريخ؛ الذي كان شاهدا على مأساة حقيقة ت تعرض لها الأندلسيين لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا، ولم يكتف الإسبان وحلفائهم بهذا، بل مدوا أنظارهم إلى بلاد المغرب الإسـلامي وبدون اسـتثناء بنقل المعارك إليه ومطاردة سـكانه والفارين من جحيم دواوين التفتيش والجيوش الإســبانية الكارهة لكل مســلم والناقمة على الســكان المغاربة الذين ساهموا بكل قوة وعزم في عملية الفتح الإسلامي للأندلس سنة 91هـ.

بعد سـقوط إمارة غرناطة أصـبح المغرب الإسـلامي ميدان الصـراع والهدف المباشـر للجيوش الإسبانية، بحيث تم احتلال العديد من سواحل المغرب الأقصى، حيث تم احتلال مدينة مليلة سنة 1498م و حجر باديس سنة 1507م بالإضافة إلى احتلال المرسى الكبير سنة 1505م، وهران 1509م، بجاية سـنة 1510م، طرابلس الغرب سـن 1510م، ليأتي الدور فيما بعد على مدينتي مستغانم سنة 1511م ومدينة الجزائر التي أعلن حكامها تبعيتها للإسبان بدون مقاومة تذكر خوفا من بطش الإسبان الذين واصلوا احتلالهم للسواحل إلى أن أن تم لهم السيطرة على جل السواحل المغاربية، ليضـطر الحكام الحفصـيين تحت ضـغط الأحداث إلى إعلان ولائهم للملوك الإسبان بدل الإســراع في قتالهم وأخذ زمام المبادرة، هذا ما زاد في تأزم الأوضــاع في بلاد المغرب الإســلامي، وجعلها عرضة للمؤامرات الداخلية والخطر الخارجين وبذلك فُسِحَ المجال لقوى خارجية لم يضع لها

الإسبان حسابا تماما، خاصة بعد أن ظنوا أنهم استطاعوا السيطرة على بلاد المغرب وبإمكانهم الانتقام من سكانهم بكل حرية.

إلا أن ظهور الإخوة بربروس على سواحل حلق الوادي بتونس وانتشار آفاقهم بسرعة في الآفاق المغاربية، هذا ما جعل السكان المغاربة ينظرون إليهم على أساس منقذين ومخلصين من الأوضاع التي آلت إليها بلادهم، خاصة وأن الدين الإسلامي كان القاسم المشترك بين الطرفين، وبذلك كان ظهور الإخوة البداية الفعلية لإعادة الاعتبار للمغاربة الذين أعلنوا الجهاد ضد الإسبان المحتلين وفي نفس الوقت أعادوا التوازن للمنطقة بعد أن كانت في وضعية استسلام تام، وهذا ما شجع السكان المحليين بالتعاون مع الإخوة بربروس على التصدي للإسبان ومواجهتهم بكل حزم عزم وقوة، وكانت البداية بتحرير جيجل سنة 1514م، ثم مدينة الجزائر سنة 1516م ليقرر خير الدين الاستنجاد بالسلطان العثماني سليم الأول، الذي وافق على مد يد العون لخير الدين معلنا بذلك ميلاد الإيالة الجزائرية الحديثة سنة 1520م ليواصل خير الدين إنجازاته، حيث استطاع تحرير مدينة الجزائر نهائيا من قبضة الإسبان سنة 1529م بعد طرد الإسبان وتدمير قلعة البنيون ليأتي الدور على تونس سنة 1534م ليعاد احتلالها من طرف الإسبان سنة 1535م بقيادة شارلكان، ليتم تحريرها نهائيا سنة 1574م، وبذلك تأسست الإيالة التونسية الحديثة وقبلها كان تحرير طرابلس الغرب سنة 1551م إيذانا بميلاد الإيالة الطرابلسية الحديثة.

أولا: سقوط إمارة غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية.

كانت نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي مليئة بالأحداث الهامة والتطورات السياسية المتميزة التي عرفتها إسبانيا الحديثة، حيث كان لهما الأثر البالغ على مستقبلهما ومستقبل العلاقات الدولية في العصر الحديث، خاصة في حوض البحر المتوسط، إذ أدى الزواج السياسي الذي تم بين ملك أرغون فرديناند وملكة قشتالة إيزابيلا سنة 1469م إلى وحدة المملكتين، وظهور الدولة الإسبانية الموحدة، ومع كل هذه الإجراءات إلا أن هذا الزواج لم يكرس الاندماج السياسي التام بمعنى الكلمة[1]، وهذا ما نلاحظه من خلال ما يلي:

- لم يكن فرديناند ملكا لقشتالة إلا بوصفه زوج إيزابيلا ومشاركته في نفس الصورة الموجودة على العملة، الأسلحة والراية.
- لم تكن للملكين فرديناند وإيزابيلا سياسة موحدة؛ ففرديناند بحكم امتلاكه لجزر البليار وصقلية وسردينيا ووجود أحد أفراد أسرته على رأس مملكة نابولي كان يتجه إلى التقرب أكثر من أوروبا لتأمين الممر البحري بين إشبيليا وصقلية، فيما كانت إيزابيلا تفضل التغلغل في المحيط الأطلسي بحكم موقع قشتالة واهتمام حاكمتها بالتوسع في العالم الجديد ومواصلة الزحف باتجاه بلاد المغرب الإسلامي.

بالرغم من هذا الاختلاف الواضح بين الملكين الكاثوليكيين، إلا أنهما اتفقا على محاربة المسلمين، سواء داخل إسبانيا ذاتها أو ببلاد المغرب الإسلامي الذي كان الهدف الرئيسي لهما، بالإضافة إلى اهتمامهما بقضايا القارة الأوروبية وشبه الجزيرة الإيطالية بتحريض مباشر من فرديناند، خاصة وأن الوحدة الإسبانية تمت على أساس ديني متعصب مقيت وتحالف وثيق بين الكنيسة الكاثوليكية والملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند، وهذا ما أنتج عداوة لكل المسلمين في الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي[2].

بدأ الملكان الكاثوليكيان تنفيذ سياستهما التي تم على أساسها زواجهما؛ باحتلال مملكة غرناطة في جانفي 1492م[3]، وبهذه الخطوة تحقق عمليا مشروع الوحدة السياسية نهائيا ولأول مرة منذ سنة 91هـ/710م، معلنان بذلك نهاية الوجود الإسلامي العربي الرسمي من الأندلس، ونهاية فصل من فصول تاريخ إسبانيا الإسلامي، وبداية تاريخ إسبانيا المسيحي الكاثوليكي، المليء بالفضائح والفظائع، وبذلك انتقل الصراع الإسلامي المسيحي من الأراضي الإسبانية إلى

---

[1]- جون.ب.وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص24.

[2]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص97.

[3]- مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبطه وعلق عليه، ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2002م، ص 47.

الأراضي المغاربية لأول مرة، كانت بدايته من احتلال بعض سواحل المغرب الأقصى ثم احتلال المرسى الكبير، وهران، بجاية وعنابة[1]، طرابلس الغرب وتونس.

عرفت إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حدثين بارزين هامين غيرّا مجرى التاريخ الإسباني والأوروبي والإسلامي، وكان لهما أهمية بالغة على مستقبل الحوض الغربي للمتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية وعلى الكثير من مناطق العالم، وهما:

- **احتلال غرناطة في جانفي 1492م.**
- **اكتشاف العالم الجديد.[2]**

لا يمكننا إخفاء ذلك الحقد الصليبي الذي ولدّته تلك الحروب، والذي ظل حيًا في نفوس رجال الدين المسيحيين الكاثوليك، وملوك أوربا عامة وإسبانيا خاصة[3]، هذه الأخيرة التي حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن المسيحيين بعدما تمكنت من القضاء على الوجود الإسلامي من على أراضيها، وفي نفس الوقت قامت بنقل المعركة إلى بلاد المغرب الإسلامي لأول مرة منذ سنة 91هـ/710م، حيث أصبحت البلدان المغاربية في موضع دفاع وأراضيها عرضة للاحتلال بعد أن كانت منطلقًا للفتح الإسلامي باتجاه إسبانيا.

لم تنس السلطات الإسبانية للسكان المغاربة مشاركتهم المتميزة والفعالة في الفتح الإسلامي لبلادهم، على يد موسى بن نصير ومساعده الأمازيغي طارق بن زياد عام 91هـ/710م، ولم تنس أيضا المساعدات القادمة من بلاد المغرب الإسلامي في عهد المرابطين، الموحدين والمرينيين، لذلك سارعت هذه المرة من أجل قطع الطريق على الأندلسيين حتى لا تأتيهم المساعدات مرة أخرى كما كان في الزمن الماضي، ولذلك كان الوضع السياسي العام في إسبانيا يترجم حقيقة مدى عمق التأثير الديني الذي كان يسيطر على تفكير الإسبان؛ حكاما ومحكومين، قبل وبعد احتلال غرناطة سنة 1492م، هذا ما شجعهم وألهب حماسهم من أجل محاربة الإسلام والمسلمين مهما كلفهم الثمن

ما يمكن ملاحظته أن الدولة الإسبانية تأسست أثناء وجود دولة المسلمين بالأندلس، وبقيت تقاوم الوجود الإسلامي طيلة المدة الممتدة من 91هـ/710م إلى غاية 897هـ/1492م، فقد كان قيامها على أسس دينية صرفه؛

---

[1]- أحمد إسماعيل راشد: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا)، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 131.

[2]- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007م، ص 42.

[3]- ابن غلبون: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار" نشره وصححه وعلّق عليه، الظاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م، ص 134.

أساسها التعصب الديني المقيت، والانتقام من كل ما يمثل الإسلام والمسلمين، ومن ثم التصدي للتوسع الإسلامي حتى لا تتكرر مشاريع المسلمين لفتح الأندلس مرة أخرى، خاصة وأن فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة 857هـ/1453م، ليس ببعيد عن أذهان الإسبان، ولذلك عملوا بكل جد وعزم وثبات على استئصال المسلمين من بلادهم، ثم الزحف لبلاد المغرب الإسلامي، واضعين نصب أعينهم نقل الحرب التي كانت تجري على أراضيهم لعدة قرون من الزمن إلى الطرف الآخر، وجعل بلاد المغرب الإسلامي تحت سلطة الكنيسة الكاثوليكية والملوك الكاثوليك.[1]

كان زعماء الكنيسة الكاثوليكية هم مصدر الخطر والداعين للحقد والانتقام من المسلمين ومطاردتهم أينما كانوا، ومن ذلك ما أصدره البابا ألكسندر السادس «**Alexandre viborgià**» من مراسيم بابوية سنتي 1492م/1503م يبارك فيها إنجازات الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفرديناند والحروب الصليبية، طالبًا من جميع المسيحيين دفع ضريبة الصليب كروزادا «**Crusaola**» لصالح ملوك إسبانيا الكاثوليك[2]، وقد كان للكنيسة الكاثوليكية الدور الأبرز والأوضح على تفكير الإسبان حينذاك، حيث كان للمراسيم البابوية الدور الفعال في شن الحملات على السواحل المغاربية، لذلك ومباشرة بعد احتلال غرناطة بدأ التفكير جديًا في نقل الحرب من الأراضي الإسبانية إلى البلدان المغاربية الغارقة في مشاكلها وهمومها التي تكاد لا تنتهي، وكان هدف الإسبان الأكبر قطع الطريق نهائيًا أمام عودة الأندلسيين الفارين من دواوين التفتيش والاضطهاد المسيحي المتواصل ضدهم، وفي نفس الوقت عزل من بقى منهم، بهدف تعمير المدن الإسبانية وجعلها مدنًا مسيحية[3]، ومن بعدها السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي تمهيدًا لتنصيرها، وهذا ما سعى إليه الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند، فقد عبر فرديناند عن ذلك بقوله: «...أعمل لأجل الرّب، ومن أجل الديانة المسيحية الكاثوليكية المقدسة، وأعمل على محاربة أعداء الإيمان المسيحي الكاثوليكي...» ، أما إيزابيلا فقد تركت وصية مفادها السيطرة على إفريقيا، وعدم الكف عن القتال في السبيل الدين المسيحي حتى الانتصار على المسلمين الذين سمتهم بالكفار.

اتسمت أغلب الحملات الإسبانية على بلاد المغرب الإسلامي بالطابع الديني والتعصب المقيت، ولم يكن الغرض منها التوسع والامتداد فحسب، بل الغرض الأكبر منها –على الأقل خلال القرن السادس عشر الميلادي– هو محاولة نشر الدين المسيحي في البلدان المغاربية وتنصير أهلها[4]، بكل الوسائل والطرق تحقيقًا لرغبة قادة الكنيسة الكاثوليكية وإيزابيلا وفرديناند الذين كان شغلهم الأكبر نشر المسيحية والقضاء على الخطر الإسلامي؛ المتمثل في الأندلسيين داخليًا،

---

[1]– عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م ، ص 28.

[2]– عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 29.

[3]– حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص125.

[4]– نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، نقله للعربية، يوسف عطا الله، دار الفرابي، بيروت، لبنان،1988، ص 32.

والمسلمين ببلاد المغرب الإسلامي خارجيًا، بل إنهم وضعوا تنصير العالم بالموازاة وفي نفس مرتبة اكتشاف الذهب، وبذلك عمل الإسبان على نشر الدين المسيحي والبحث عن الثروة سواء في العالم الجديد الذي كان قد اكتشف حديثًا أو على السواحل المغاربية، مع اختلاف المكان والطريقة ورد الفعل أيضًا على مشروع الاحتلال الإسباني في المنطقتين.

لم يبق من دولة الإسلام هناك سوى بعض الولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الاندلس قامت فيها مملكة صغيرة عرفت بمملكة غرناطة شاءت الاقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمن وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى استطاعا الملكان المسيحيان فرديناند الخامس وإزابيلا حاصر الإمارة بقواتهما بداية من 12جمادى الآخرة 896هـ/ 30أفريل 1491 حصارا شديدا أتلف الزروع المحيطة بالمدينة وكل ما يمت بصلة للحياة ومن ثمّ قطع أي اتصال لها بالعالم الخارجي و منع أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى حتى استسلمت المدينة وسقط آخر معاقل الإسلام في الاندلس ذات يوم من جانفي 1492م.

بعد إحكام سيطرتهما واحتلال إمارة غرناطة حاول الحكام الإسبان استعمال أسلوب العنف والإكراه ضد الأندلسيين الموريسكيين للضغط عنهم من أجل ترك دينهم واعتناق الدين المسيحي، إلا أنهم فشلوا في هذا الأسلوب؛ الذي لم يجنوا منه إلا خيبات الأمل، في مقابل إصرار الأندلسيين الموريسكيين على الصبر والمقاومة والاصرار على التمسك بدينهم وعقيدتهم، بالرغم من سياسة الترهيب والتنكيل التي مارسها ضدهم ديوان التحقيق الإجرامي.

ازدياد الثورات الأندلسية الموريسكية داخل إسبانيا، جعل السلطات الإسبانية تدرك خطورة هذه الثورات التي كانت تعبر عن رفض الأندلسيين لكل الممارسات القمعية التي كانت تمارس ضدهم، وفي نفس الوقت أعطت انطباعا عن مدى تمسكهم بدينهم ووطنهم المسلوب منهم، خاصة وأنهم كانوا يتلقون الدعم المطلق واللامشروط في ثوراتهم من طرف حكام الإيالة الجزائريةخاصة والحكام المغاربة عامة، هذا ما جعل الإسبان يسارعون في القضاء عنهم قبل أن يستفحل أمرهم، وهذا ما نستشفه من النص التالي: «... إنه من المعلوم أن موريسكيي هذه المماليك القتشالية تقدموا أكثر فأكثر لتنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أنني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة على أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائما الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم وكذلك بسبل أخرى...».

وقد كان للكنيسة الكاثوليكية دورا رئيسيا في إصدار الملك الإسباني فليب الثالث لقرار الطرد النهائي، خاصة البابا كليمانت السابع الذي كان من أكبر المحرضين والداعمين لطرد المسلمين من إسبانيا و ملاحقتهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، التي كان يريدها أن تكون مسيحية كاثوليكية، لذلك أصدر أمرا بابويا بتاريخ 11جوان 1534م يطلب فيه من الملك شارلكان أن لا ترك أي مسلم على الأراضي الإسبانية، وطرده منها إذا رفض اعتناق الدين المسيحي، ليواصل قادة الكنيسة الضغط على الملوك الإسبان من أجل القضاء على المسلمين في كامل إسبانيا، لذلك انصاع الملوك لرغبات

ونزوات الباباوات، وبدأوا في اختلاق الأسباب والمبررات اللازمة من أجل إصدار قرار ضد المسلمين ولذلك زادت نشاطات دواوين التحقيق والتجسس على الأندلسيين الموريسكيين، ففي سنة 968هـ/1561م استدعى الملك فليب الثاني أحد الجواسيس اسمه غريغوري دوميراندا وسأله عن الأندلسيين وتصرفاتهم داخل إسبانيا، فأجابه قائلا: «...إن الموريسكيين هم عرب مسلمون تماما كالجزائريين، وأنهم يمارسون شعائرهم وعبادتهم علنا ولديهم الكثير من المساجد، وأنهم خونة لا يفكرون إلا في الثورة حينما تسمح لهم الفرصة، وإنهم يغيرون على النصارى ويخفون القراصنة ويتعاونون مع الأتراك، وإنه من الضروري نزع سلاحهم وإعادة تنشئتهم على النصرانية...».[1]

الملاحظ أن جل القرارات التعسفية والإجرامية بحق الأندلسيين الموريسكيين أغلبيتها صادرة عن رجال الكنيسة الكاثوليكية، الذين عملوا منذ سقوط غرناطة وما قبلها وإلى غاية صدور قرار الطرد النهائي على التحريض ضد المسلمين؛ سواء في إسبانيا ذاتها أو ببلاد لمغرب الإسلامي، حيث لم يهدأ لهم بال إلى أن جاءتهم الفرصة مواتية في عهد الملك فليب الثالث، الذي وجد فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية الرجل المناسب الذي يحقق لهم آمالهم وأحلامهم التي لطالما تمنو تحقيقها عبر زمن طويل انتظروه كثيرا.[2]

حاولت السلطات الإسبانية جاهدة القضاء على كل مظاهر الإسلام بالأندلس مباشرة بعد احتلال غرناطة سنة 897هـ/1492م، لذلك عمل الحكام الإسبان بكل الوسائل والأساليب من أجل الضغط على الأندلسيين للرحيل من إسبانيا أو اعتناق الدين المسيحي، إلا أن هذه السياسة لم تكن بالحدة ذاتها التي وصلت إليها فيما بعد، خاصة نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين.

ثانيا: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15 م ومطلع القرن 16 م.

1: أوضاع المغرب الأوسط بداية القرن 10هـ/16م.

1-1-الأوضاع السياسية

عرف المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين تفككا سياسية وانهيارا اقتصاديا، وتخلفا ثقافيا وجمودا حضاريا لم يسبق له مثيل، وأصبح منقسما إلى عدة إمارات متحاربة فيما بينها، استطاعت كل واحدة منها تكوين شبه دولة قائمة بذاتها، ما تكاد تختفي دويلة حتى تظهر على أنقاضها أخرى، خاصة بعد أن

[1] – أسعد حومد:محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1988م.ص 354.

[2] – بورونات إي براتشينا، الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج1، ج2، ترجمة، كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1432هـ/2012م، ص45.

وصـلت الدولة الزيانية لمرحلة الإجهاد والانهيار والفوضـى، حيث لم يُعِرْ أمراءها أي اهتمام بالرعية والدولة، حتى وصـل الأمر بهم إلى الاستنجاد بالإسبان ضد بعضهم البعض، مثلما قام يحي الثابتي سنة 912هـ/1506م أثناء تمرده على أبي حمو موسى الثالث (1503-1517م)، عندما طلب المساعدة من الإسبان للسيطرة على عاصمة الزيانيين تلمسان، وبذلك أتاح لهم فرصة لا تعوض من أجل فرض ضرائب على أمراء بني زيان قدرت بـ12 ألف دوقة و12 فرسا و6بزات.

أمام الضعف والهوان الذي أصاب الأمراء الزيانيين استغل الحفصيون بتونس هذه الأوضاع لصالحهم وقاموا بالسيطرة على بجاية وقسنطينة وجزءا كبيرا من شرق المغرب الأوسط، فيما حاول بنو مرين التدخل في الشؤون الداخلية للزيانيين، ومحاولة السيطرة على مناطق من الجهة الغربية للدولة الزيانية، فيما كانت بعض المناطق الشمالية والداخلية تخضع لحكم بعض الأسر العريقة مثل: مدينة الجزائر التي كانت تحكمها قبيلة الثعالبة بقيادة سالم التومي، ومدينة تقرت التي كانت تحكمها أسرة بني جلاب، ومدينة ورقلة تحكمها أسرة علاهم، أما المناطق الجبلية فقد تأسست بها إمارات ينتمي حكامها إلى أصولا مرابطية شريفية مثل إمارة كوك التي كان يحكمها أحمد بن القاضي، وإمارة بين عباس التي كان يحكمها الأمير عبد العزيز، أما المنطقة الوسطى فكانت تتقاسم حكمها العديد من الأسر مثل: إمارة بوعكاز التي كانت تمتد إلى غاية الزاب والحضنة وبعض الجهات الأخرى في الصحراء، وإمارة بني يزانسن وفقيق بالجهة الغربية.[1]

أما المناطق الداخلية من المغرب الأوسط فقد سيطرت عليها بعض القبائل العربية والبربرية، ومن أهم القبائل العربية نذكر؛ قبائل الضحال وعباد اللذان سكنا منطقة حمزة، وقبائل بنو عبيد غربي تلمسان، أما القبائل البربرية فنذكر قبائل زواوة التي سكنت جبال جرجرة، وصنهاجة التي سكنت الجبال الواقعة جنوب جرجرة وتنس ومصب نهر الشلف، وقبائل توجين التي سكنت جبال الونشريس، وبنو ميزاب الذين سكنوا غرداية، وفطين واستوطنوا شمال تلمسان وبنو عبد الواد وسكنوا تلمسان وأحوازها.[2]

كان للأوضاع المزية التي آل إليها المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي دورا بارزا في طمع السلطات الإسبانية في احتلاله خصوصا بعد أن تمت الوحدة الإسبانية نهائيا بالسيطرة على إمارة غرناطة في شهر جانفي 1492م، معلنة بذلك مطاردة المسلمين في الأندلس، الذين لم يكن لهم من ملجأ إلا بلاد المغرب الإسلامي، وخصوصا المغرب الأوسط، أين واصلت الجيوش الإسبانية ملاحقة الأندلسيين به، حتى لا يفكروا في العودة مرة أخرى إلى بلادهم المحتلة[3]، وفي نفس الوقت الانتقام من المغاربة الذين لطالما قدموا المساعدات للمسلمين بالأندلس.[4]

---

[1]- يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص8.

[2]- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص، 84، 85.

[3]- محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، 1969م، ص14.

[4]- محمد حسن العيدروسي: تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1997م، ص 30.

في الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب الأوسط تعيش الانحطاط والتجزؤ والانهيار داخليا، كان خطرا خارجيا يتهدد البلاد والعباد، حيث بدأت بعض سواحل البلاد تتعرض إلى الاحتلال من طرف الإسبان الذين كانت بلادهم تعرف نهضة علمية ووحدة سياسية وازدهارا اقتصاديا وتطورا عمرانيا وتلاحما اجتماعيا، هذا ما شجعهم على توجيه أنظارهم لبلاد المغرب الأوسط من أجل احتلالها واستغلال خيراتها.

1-2- الأوضاع الاقتصادية.

انهار الاقتصاد بالمغرب الأوسط بسبب الفوضى السياسية الناتجة عن غياب الأمن والاستقرار، فقد اضطر الفلاحون لهجرة أراضيهم الزراعية بعد تزايد الأخطار الداخلية والخارجية، لأن الكثير من السكان فضلوا الهجرة إلى المناطق الآمنة، خاصة بالمدن الكبرى، تاركين أراضيهم ومزارعهم مهملة يعثوا فيها الغرباء فسادا، فيما فضل البعض الآخر من الفلاحين تربية المواشي والابتعاد عن المناطق كثيرة النزاعات، والفرار بمواشيهم وعائلاتهم إلى المناطق الصحراوية والجبال، وهذا ما نتج عنه تدهور الفلاحة حتى غدا بعض الفلاحين يعانون من الفقر البؤس بعد أن كانوا في رغد من العيش.

أما فيما يخص المجال الصناعي، فإن المغرب الأوسط لم يعرف نهضة صناعية بمفهومها الشائع حينذاك، إنما كانت هناك بعض الحرف الموجودة في الكثير من المناطق بالبلاد، مثل صناعة السروج، سكك المحاريث، المناجل، الخناجر، الفؤوس والأواني الفخارية ذات الاستعمال المنزلي، وقد كانت منتشرة في كامل البلاد وعُرفت بجودتها العالية، بالإضافة على صناعة الزرابي، الأقمشة، صناعة البرانس، وكذلك تصنيع الفحم من أشجار الخروب.[1]

وقد اشتهرت مناطق بذاتها بصناعات معينة، كإمارة كوكو التي كانت تصنع بها الرماح والسيوف والبارود، ومدينة بجاية التي اشتهرت بها صناعة السفن لتوفرها على المواد الأولية الخاصة بهذه الصناعة خاصة الخشب ذات النوعية الجيدة، كما اشتهرت مدينتي شرشال والجزائر بهذه الصناعة، خاصة بعد توافد الأندلسيين الذين وظفوا خبرتهم في تجهيز وصناعة السفن لمواجهة المحتلين الإسبان.[2]

أما التجارة فقد عرفت ركودا رهيبا بسبب كثرة الحروب بين الإمارات والقبائل المتناحرة فيما بينها، زاد الأمر خطورة انتشار قطاع الطريق واللصوص، نتيجة لقلة الأمن في ظل غياب تام لسلطة مركزية موحدة تضبط الأمن وتطبق القانون، مما اضطر بعض التجار إلى ترك مهنهم والفرار إلى أماكن أخرى أقل خطورة آملين في النجاة بأنفسهم بعد أن

[1] – مارمول كربخال: إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ص 351.

[2] – أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، القبة، الجزائر، 2009، ص 146.

أصبحت سلعهم وأموالهم عرضة للنهب والسرقة، وفي بعض الأحيان تذهب حتى أرواحهم فداء لأموالهم وتجارتهم، هذا ما نتج عنه تدهورا خطيرا للتجارة وخراب مدن وقرى بأكملها.[1]

بالرغم من هذه الأوضاع الخطيرة، إلا أنه يمكننا استثناء بعض المناطق الساحلية والداخلية، أين كان يتوفر الأمن أو بالقرب من مراكز الاحتلال الإســـباني أين توجد بعض القبائل العميلة التي كانت تمارس التجارة معه وتحت حمايته ورعايته المباشرة، في مقابل العمالة والخضوع له، والتعاون ضد سكان البلاد الرافضين للاحتلال، وهكذا استمر النشاط التجاري مع الإسبان بدون تدخل السلطة المركزية بسبب عجزها عن فعل أي شيء.

أما التجارة الخارجية، فقد كان لها نفس مصير التجارة الداخلية، خاصة بعد الكشوفات الجغرافية الإسبانية، وما نتج عنه من اكتشـــاف طرق تجارية جديدة، هذا ما انعكس على المغرب الأوســـط الذي فقد أهميته التجارية التي عُرف بها في العصـــر الوســـيط، حيث عرفت موانئه إهمالا كبيرا وتدهورا خطيرا، وفقدت العديد من المدن دورها الريادي في التبادل التجاري بين الدول الأوروبية وبلاد المغرب الإسلامي، مثل مدينة وهران، تلمسان، بجاية، عنابة وغيرها من المدن الأخرى.[2]

1-3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

تشكلت البنية السكانية في بلاد المغرب من عنصرين أساسيين؛ العرب والأمازيغ اللذان اندمجا مع بعضهما البعض منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، حيث ساعدت العديد من الأسباب في هذا الاندماج والوحدة، نذكر منها:

- الدين الإسلامي؛ الذي أزال جميع الفروقات والحساسيات الموجودة بين السكان الأصليين والوافدين الجدد.
- لعب المذهب المالكي دورا رئيسيا في توحيد سكان بلاد المغرب الأوسط.
- اللغة العربية التي كانت عنصر اندماج ووحدة، وعاملا من عوامل الجذب والألفة بين جميع مكونات المجتمع.
- الخطر المشترك؛ الناتج عن الاحتلال الأجنبي لبلاد المغرب، خاصة الإسبان الذين ساهموا بطريقة غير مباشرة في زيادة الوحدة والألفة بين مكونات المجتمع الواحد.

غلب على نمط الحياة ببلاد المغرب الأوسط البداوة والترحال، لأن أغلبية سكانه يعيشون في الأرياف ويعملون في تربية المواشي وزراعة الأراضي، مما يتطلب الترحال المتواصل بحثا عن الكلأ والماء والأمن، وقد كان يسود بينهم نظام القبلية والعشيرة، أين السلطة المطلقة بيد أعيان القبائل والمرابطين، أما في المدن الكبرى فقد غلب عليها نمط التحضر والاستقرار،

[1]- محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 70.

[2] - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص ص 203، 206.

زاد هذه الوضعية الفريدة رونقا وجمالا قدوم الأندلسيين إلى المدن الساحلية بالمغرب الأوسط، بعد سقوط آخر معاقلهم إمارة غرناطة بيد الإسبان المحتلين في جانفي 1492م.[1]

استطاع الأندلسيون الموريسكيون التأثير في بنية المجتمع وازدهار الحياة الاجتماعية فيه، نتيجة التفاعل الذي حدث بين جميع أطياف المجتمع الأصليين والوافدين الجدد، الذين كانت لهم نشاطات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية خاصة بهم، أرادوا نقلها إلى مجتمعاتهم الجديدة بالمغرب الأوسط ما نتج عنه تمازجا بين المجتمع العربي الأمازيغي والمجتمع الأندلسي الحامل بين ثناياه الفكري الغربي الأوروبي بالرغم من طابعه العربي الإسلامي، أو بمعنى آخر ربط مجتمع المغرب الأوسط ذو الطابع المشرقي الإسلامي بالمجتمع الأندلسي ذو الطابع الغربي[2]، وهذا ما أثر كثيرا في عديد المدن الساحلية التي نهل سكانها من إبداعات الوافدين الجدد، خاصة مدينة الجزائر، شرشال، دلس، بجاية، عنابة، مستغانم وتنس.

برز التأثير الأندلسي الموريسكي جليا في المغرب الأوسط من خلال عنصرين رئيسيين هما:

- **إدخال العديد من العادات والتقاليد إلى بلاد المغرب الأوسط، بالإضافة إلى مساهمتهم في إحياء وتنشيط الحياة الثقافية بعد الركود الذي أصاب الكثير من المدن.**
- **إعلان الجهاد ضد الإسبان المحتلين دفاعا عن العباد والبلاد، هذا ما أنتج تكاثفا وتلاحما بين الوافدين الجدد والسكان المحليين، لينصهر الجميع في بوتقة واحدة وتحت مظلة جامعة بعد قدوم العثمانيين.[3]**

أما فيما يخص الحياة الثقافية، فقد عرفت تراجعا رهيبا عما كانت عليه سابقا نتيجة لغياب الأمن والطمأنينة، فإذا ما استثنينا بعض الزوايا التي استطاع شيوخها المحافظة على مواصلة تعليم الطلبة الوافدين إليها والراغبين في طلب العلم، وعلى ديمومة التعليم وسيرورته بالمغرب الأوسط، وقد عرفت هذه المرحلة انتشار الفكر الصوفي والتصوف، حيث أصبح ظاهرة غالبة في المدن والبوادي بعد أن كان منحصرا في بعض المدن فقط.

ما يمكن ملاحظته هو اندثار وتراجع العديد من الحواضر العلمية بالمغرب الأوسط، بعد أن كانت منارة علم ومقصد الطلبة من كان مكان في العصر الوسيط، مثل: بجاية، مازونة وتلمسان وتوات، هذا ما انعكس سلبا على حركية التعليم، حيث هاجر العلماء والمعلمين بعد الاحتلال الإسباني، مفضلين الذهاب إلى مراكز علمية أكثر أمنا، سواء داخل الوطن أو

---

[1] – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص80.

[2] – عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م، ص 325.

[3] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 148.

خارجه مثل: القرويين بفاس الذي كان لا يزال حينذاك يؤدي رسالته العلمية ودوره الريادي في التعليم ونشر العلم بكفاءة متميزة.[1]

2: أوضاع طرابلس الغرب بداية القرن 10هـ/16م.

2-1-الأوضاع السياسية.

لا يمكن فصل تاريخ طرابلس الغرب- منذ قيام الدولة الحفصية على أنقاض دولة بني مرين عن تاريخ الدولة الحفصية حيث ظلت البلاد تابعة للسلاطين الحفصيين، حتى وإن كان في الكثير من المرات اسميا فقط، على اعتبار أنه يسود بها نظام العشيرة والقبيلة، وكل منطقة شكلت دويلة قائمة بذاتها مستقلة عن الدولة الحفصية، بالرغم من أن هذه الدويلات كانت تدفع الضرائب والرسوم وتعلن الولاء للسلطان الحفصي؛ بقراءة الخطبة باسمه والدعوة له على المنابر يوم الجمعة، مثلما كان عليه الحال في إقليم فزان وبنغازي وغدامس، فقد كانت هذه الإمارات تستقل بذاتها تارة، وتتبع حكام طرابلس تارة أخرى، وبذلك تعتبر إحدى مقاطعات السلطان الحفصي[2]،حيث أسست شبه دويلات مستقلة يحكمها رجال الطرق الصوفية والمرابطين، أما الجزء الشرقي من البلاد "برقة" فقد كان خاضعا للمماليك بمصر، إلا أن الحقيقة الماثلة في ذلك الوقت والتي يجب أن نعرفها هي أن السلطة الفعلية كانت بيد البدو الذين كانوا يملكون زمام الأمور؛ لأنهم يمثلون القوة الرادعة والضاربة في برقة، طرابلس وفزان، بالرغم من تعدد ولاءتهم لعدة جهات كالحفصيين، المرينيين والمماليك بمصر.[3]

مع حلول سنة 864هـ/1460م حدثت اضطرابات خطيرة بطرابلس الغرب نتيجة لخلاف كبير وقع بين أسرتين عريقتين بالمدينة؛ أسرة مامي الشريف وهو أحد الأثرياء الكبار، والذي زوج ابنته إلى ابن مصطفى بن أحمد أحد وجهاء وأعيان المدينة، إلاّ أنّ ابن هذا الأخير ردّ العروس في اليوم الموالي، ونتيجة لهذا الحدث، نشب قتال بين الأسرتين وأتباعهما، كانت نتائج هذا الصراع وخيمة على الطرابلسيين الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، حُمِّلَت أوزارها للوالي الحفصي بطرابلس الذي لم يقم بدوره في رأب الصدع وإصلاح الأحوال، لذلك كله كان مصيره الطرد من طرابلس، وفي المقابل استطاع أحد الوجهاء اسمه سيدي منصور والذي تميز بالحنكة والدهاء وقف القتال بين الطرفين، وتوصّل إلى إبرام صلح بينهما وتم القضاء على هذه الفتنة وعاد الهدوء إلى البلاد، وكمكافأة لهذا الشيخ على عمله هذا بايعه أهل طرابلس كملك عليهم، بمباركة إمام الجامع الكبير[4]، وبهذه البيعة أصبح الحاكم الفعلي لطرابلس، ولتأكيد هذا المنصب الجديد وفد على

---

[1] - محمد دراج: المرجع السابق، ص74.

[2] -محمد بيرم الخامس التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأخبار، دار صادر، بيروت، لبنان،1303هـ /1985م، ص66.

[3]- محمد دراج: المرجع السابق، ص78.

[4] - شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، نقلها إلى العربية وحققها، محمد عبد الكريم، ط3، منشورات قاريونس، بنغازي، الجماهيرية الليبية، 1994م، ص 66.

الشيخ سيدي منصور العديد من زعماء القبائل لمبايعته مثل؛ قبيلة غريان، بني وليد، ترهونة، مصراتة، مسلاتة، وزواوة، فيما خرج أهالي تاجوراء كلهم لمبايعته وتهنئته[1].

بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها الشيخ منصور أعلنت طرابلس الغرب بداية الانفصال الرسمي عن الدولة الحفصية التي كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، وتأكيدا لسياسة الانفصال شُكّل مجلسا محليا من وجهاء وزعماء القبائل التي بايعت الشيخ منصور، حيث دارت مناقشات طويلة ومشاورات عديدة داخل المجلس أُتخذ على إثرها قرارا بإسناد رئاسة المجلس للشيخ منصور وفي نفس الوقت يكون حاكما وملكا عليهم.[2]

لما سمع السلطان الحفصي الأمير أحمد بن محمد الحفصي «أبو عمر» بمبايعة أهالي طرابلس للشيخ منصور وإعلان انفصالهم عن تونس، قرر تأديبهم وإعادة إخضاعهم لسلطته من جديد، فأرسل إلى طرابلس جيشا عرمرما للانتقام من الطرابلسيين[3]، غير أن الشيخ منصور عَلِم مبكرا بتحرك الجيش الحفصي، لذلك استعد جيدا لهذه المعركة وقام بتجهيز جيش قُدِّر بحوالي 5000 مقاتل من المشاة و3000 فارس، وأعدّ خطة محكمة لمواجهة هذا الموقف؛ تقضي بترك الجيش الحفصي يتقدم حتى يصل إلى منطقة زواوة، وهناك التقى الجيشان في معركة حامية الوطيس، أسفرت نهايتها عن انهزام جيش أحمد بن محمد الحفصي «أبو عمر» الذي فقد حوالي 3000 جندي، وتراجع باقي جيشه إلى تونس، ونتيجة لهذا الانتصار زادت شعبية ومكانة الشيخ سيدي منصور لدى أهالي طرابلس، فاستغل هو هذه الفرصة وراح يُثبّتُ أركان حكمه بالبلاد، إلا أن السلطان التونسي لم يتقبل الأمر وحاول القضاء على الحكم الجديد بطرابلس الغرب، لذلك كرر الهجوم مرة ثانية، غير أنّ محاولته باءت بالفشل مرة أخرى، ليقرر بعدها الطرفان وضع حدٍ لهذه الحرب سنة 867هـ/ 1463م، فاسحين المجال لاستئناف العلاقات السلمية والتجارية بين الطرفين.[4]

لم تدم سيرة الشيخ سيدي منصور الحسنة في رعيته إلاّ مدة يسيرة من حكمه، ثم بدأت تسوء، فقد ظهر عليه حب الذات والانفراد بالحكم والتعالي على أهل طرابلس، واستعمال الغلظة والشدة معهم والتجبر والطغيان في استعمال السلطة والنفوذ، وسار في الناس سيرة قبيحة، نفرّتهم منه وجعلتهم يتضايقون من أعماله ومعاملاته، فقد كان يسوسهم كملك له سلطة مستقلة، وأراد حكمهم بالقوة والجبروت[5]، فقرر صهره التخلص منه بأيّ وسيلة، وبعد تخطيط وتدبير تحقق له ذلك

---

[1] – محمد خير فارس، محمود علي عامر: تاريخ المغرب العربي الحديث " المغرب الأقصى، ليبيا "ج1، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا، ص147

[2]– خليفة محمد التليسي: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1997، ص64.

[3]–الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص100.

[4]– شارل فيرو: المرجع السابق، ص 65.

[5]– الحسن الوزان: المصدر السابق، ص100.

سنة877هـــ/ 1472م[1]، وبذلك تخلصت طرابلس الغرب من حاكم مستبد، وانتهى الأمر بالسكان إلى الالتجاء لأحد أفراد حاشية الأمير «أبو بكر»، وهو الشيخ يوسف الذي أُجبر على تولي الحكم بالرغم من رفضه هذا الأمر.[2]

بايع أهل طرابلس الشيخ يوسف كأمير عليهم سنة 877هـ/1472م، وقد عرفت فترة حكمه العديد من الأحداث البارزة، خاصة هجوم مارتان الأول «Martin1» ملك صقلية على طرابلس بحجة مطاردة البحارة المغاربة، ولم يلبث الأمير يوسف في الحكم كثيرا حتى توفي بالطاعون سنة 885هـــ/1480م، ليخلفه الشيخ «مامي» الذي تمت بيعته كأمير للبلاد بالجامع الكبير في نفس السنة، ليتولّى من بعده الشيخ عبد الله بن شرف سنة 1492م، الذي عرفت البلاد في عهده توجيه العديد من الحملات ضد القراصنة النصارى الذين زاد نشاطهم ضد المسلمين، وكان ينطلق في ذلك من قناعته الراسخة بوجوب جهاد المعتدين من المسيحيين وعدم مهادنتهم ورفع راية الإسلام، لأنه عُرف بتدينه وزهده في الحكم حتى لقب بالمرابط[3]، ونظرا لسيرته الحسنة فقد ظلّ يحكم البلاد إلى غاية الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م.[4]

عرفت طرابلس الغرب خلال فترة الحكم المحلي للبلاد العديد من الاضطرابات والمشاكل، خاصة وأنها أصبحت مستقلة بنفسها عن الحفصيين نهائيا، وأُلقيت الخطبة باسم السلطان المريني بفاس، وأمّا مدينة سرت فقد شكلت إقليما سياسيا مستقلا بذاته عن كل سلطة أخرى، يحكمها مجلسا محليا يتكون من شيوخ القبائل المحليين، يترأسه شيخ تؤول إليه أمور المدينة وتوابعها في كلِّ شيء.

أمّا برقة فكانت مقسمة بين اثنين من زعماء القبائل العربية؛ جزء شرقي تحت سيطرة أبي ذئب رئيس قبيلة هبيب، وجزء غربي تحت حكم الشيخ إسلام رئيس قبيلة لبيد، أمّا مصراتة، مسلاتة، سرت والخمس، فقد كانوا منذ العصر الوسيط يشكلون كيانات سياسية مستقلة، تحكمها أسرة عربية من أولاد سالم. أمّا جنوب غريان، وجنوبها الشرقي فقد كانا تحت حكم أولاد سليمان.[5]

وهكذا كانت بقية المدن الأخرى. كلّ مدينة شكّلت إمارة قائمة بذاتها لا يهم زعماءها إلاّ مصالح القبيلة الخاصة، وأكثر من ذلك متناحرين فيما بينهم حول الكلأ والمراعي والماء والحدود والنفوذ، ناسين أو متناسين الخطر الخارجي، إلى

---

[1]- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص65.

[2]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص100.

[3]- شارل فيرو: المرجع السابق ص 67.

[4]- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص65.

[5]- إسماعيل كمالي: سكان طرابلس الغرب، تعريب وتحقيق، حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1997م، ص ص 39،40.

أن داهمهم الإسبان سنة 916هـ/1510م، واستطاعوا احتلال البلاد بكلّ سهولة في مدة زمنية وجيزة، نتيجة للانقسام والتنافر الحاصل في البلاد والخلافات الدائمة والمستمرة بين حكامها، وهي في الحقيقة ميزة اختصت بها كامل البلاد المغاربية في ذلك الوقت، قبل قدوم العثمانيين إليها.

2-2-الأوضاع الاقتصادية.

منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة 27هـ، لم تعرف طرابلس الغرب أي وحدة سياسية بمفهومها الحقيقي ، لذلك أثّرت هذه الوضعية على الحياة الاقتصادية للبلاد، غير أنّ موقعها الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط وامتدادها نحو الصحراء الإفريقية ووقوعها في الطريق الرابط بين المغرب والمشرق الإسلاميين، أهلها لتكون همزة وصل وملتقى للطرق التجارية العالمية، وأعطاها ميزة فريدة من نوعها جعلتها تلعب دورا محوريا وبارزا كمركز ومعبر لتجارة الصحراء الإفريقية باتجاه أوربا خاصة الدويلات الإيطالية ومالطا، هذا على المستوى الخارجي، أما على المستوى الداخلي فخصب الأرضي وتنوع المناخ ووفرة المنتجات الفلاحية والرعوية جعلها في صدارة دول المغرب الإسلامي من حيث غناء أهلها واستقرارهم.

عاش سكان طرابلس الغرب حياة بسيطة؛ أساسها الاعتماد على أنفسهم في توفير مستلزمات حياتهم اليومية، خاصة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، حتى أن الفلاح يعتبر غنيا عند الطرابلسيين إذا استطاع توفير ستيتة أو ستيتين من الشعير[1]، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن سكان طرابلس الغرب بالأرياف والمدن الصغرى كانت حياتهم بسيطة لا تَكلُفَ فيها، يعتمدون في معيشتهم على كسب أيديهم وزراعة أرضهم، مستغنين عن معونة السلطات الحاكمة حينذاك، هذا إن وُجِدت أصلا، أمّا المدن الكبرى فقد كانت تمثل الاستثناء لأن أهلها عرفوا نوعا من الرفاهية والعيش الكريم، ومن أهم هذه المدن طرابلس ذاتها، وبرقة، وتاجوراء وغيرها فقد نقل لنا العياشي في رحلته نصا يعبر بصدق عن حياة الترف والبذخ الذي كان يعيشه أهل طرابلس، حتى أنهم نسوا واجب الدفاع عن بلادهم وتخلوا عن أبسط الأسلحة التي يجب أن يتسلحوا بها للدفاع عن أنفسهم وبلادهم، وفي ذلك يقول: «... إنّ أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة، فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع وقدم لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر، فصنع لهم طعاما فاخرا فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم، فبُهِتوا من ذلك، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين، ولا عند جاره

[1]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص98.

إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين، فلما رجعوا إلى بلادهم سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها، فقالوا: "ما رأينا بلدة أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"، وحكوا له الحكايتين...».[1]

وبصرف النظر عن صدق هذه الرواية من كذبها، إلاّ أنّه يمكننا أن نستخلص منها الحالة المعيشية المزدهرة التي كان يعيشها سكان مدينة طرابلس الغرب ونواحيها، بالإضافة إلى المدن الواقعة على الساحل، بل هناك من المؤرخين من يؤكد أن طرابلس كانت مزدهرة أكثر مما كانت عليه تونس، وسكانها أغنى، فكانت مدنها مليئة بالمجوهرات واللآلئ والبضائع المختلفة، وكان بها العديد من المصانع قدرت بحوالي **150** مصنعا مختصا في صناعة الحرير والمنسوجات الفاخرة، وازدهرت بها التجارة الداخلية في جميع المجالات، كما كان بها عدد هائل من التجار والبقالين الذين كانت مخازنهم ممتلئة بالبضائع والسلع بجميع أشكالها وأنواعها[2].

تماشيا مع ازدهار التجارة الداخلية وكثرة التجار والحرفيين، كان تنظيم الأسواق يخضع لهذا التنوع والاختلاف، فأسواق المدن منسقة ومفصولة عن بعضها البعض بحسب نوع الحرف، فمثلا حرفة النساجين التي كانت مزدهرة، كانت تخضع لقوانين مضبوطة وتحكمها قواعد خاصة بها على عكس بقية الحرف الأخرى التي لم تكن في نفس مستوى هذه الحرفة[3]، ومع ذلك كانت الحرف الأخرى منظمة ولها أماكنها وأزقتها الخاصة التي تعرض وتباع فيها، وكانت هذه السلع تسوّق وتصدر إلى البلدان الأخرى، مثل المغرب الأوسط وتونس[4] والصحراء الإفريقية والدويلات الإيطالية ومالطا.[5]

أما البوادي والأرياف فإنّ المعيشة بها كانت بدائية كحال جميع بلدان المغرب الإسلامي، فحياة السكان بها تعتمد على زراعة الأراضي الصالحة، لأن طبيعة البلاد الغالب عليها الطابع الصحراوي منع سكانها من زراعة الأراضي على نطاق واسع، زدْ على ذلك قلة الأمطار وظهور الجفاف في الكثير من السنوات منع انتشار الزراعة بشكل كاف، حيث فضل الكثير من السكان تربية المواشي؛ خاصة الإبل والماعز والأغنام، لأن هذه الحيوانات تتلاءم وطبيعة هذه البلاد، ومع ذلك انتشرت الكثير من الزراعات مثل: غرس النخيل الذي اشتهرت به واحات طرابلس لأنه لا يحتاج إلى الكثير من المياه، خاصة وأن البلاد كانت تعاني من ندرة المياه بسبب طابعها الصحراوي الجاف، وهذا ما أشار إليه الحسن الوزان بقوله: «... وليس بها سقايات ولا آبار وإنّما فيها خزانات وتعاني كثيرا من قلة الحبوب. لأنّ البادية كلها ليست سوى رمال كبادية

---

[1]- أبو سالم العياشي؛ عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية (1661-1663م)، ج1، تحقيق، سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص 143.

[2] - مرمول كربخال: المصدر السابق، ص124.

[3]- راسم رشدي: طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، طرابلس، ليبيا، 1953، ص87

[4]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص97.

[5]- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص121.

نوميديا...»[1]، وقد زودنا مرمول كربخال بنص يؤكد لنا هذه الحقيقة حيث قال: «... واحات وافرة النخيل، إلاّ أنّ تربتها لا تنتج شعيرا ولا قمحا، فظلّ الخبز بسبب ذلك يباع بثمن غال، وكثيرا ما كان يُفتقد في الأسواق...».[2]

من هاتين الروايتين نكتشف أن السكان يعتمدون في معيشتهم على المنتجات المحلية والزراعة العائلية التي تتلاءم وطبيعة منطقتهم وتكفي لسدِّ حاجيات الأسرة فقط، خاصة في المناطق البعيدة عن المدن الساحلية ممّا أثر على مستوى المعيشة في البلاد حيث يقول الوزان: «...ويأكل السكان طعاما رديئا جدا وهو بازين الشعير، لأنّ المؤن المستوردة للمدينة لا تكفي لإعالتها يوما واحدا...»[3]، لذلك توجه سكان طرابلس الغرب للاعتماد في معيشتهم على تربية المواشي والتجارة أكثر من اعتمادهم على الفلاحة التي لم تستهوهم كثيرا نظرا الصعوبة ممارسة نشاطها.

أمّا عن التجارة الخارجية فقد كانت مزدهرة نوعا ما بسبب الموقع الاستراتيجي للبلاد؛ التي تمتد جنوبا إلى غاية الصحراء الإفريقية وشرقا وشمالا باتجاه البحر المتوسط، زادها أهمية قربها من مالطا والدويلات الإيطالية وعموم أوربا، فقد كان تجارها يتعاطون التجارة على نطاق واسع مع تجار جنوب الصحراء الكبرى والمغربين الأوسط والأقصى، لأنّ البلاد كانت طريقا لمرور قوافل التجار والحجيج باتجاه مكة والمدينة المنورة، وبذلك شكلت همزة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، بالإضافة إلى إنها كانت مركزا هاما لرسوِّ السفن التجارية من مختلف الأقطار، حيث كانت سفن جنوا والبندقية والعديد من السفن الأوروبية تقوم بإفراغ البضائع وتبادلها مع بضائع وسلع الطرابلسيين، ومع بضائع كل تاجر يأتي إلى البلاد لتسويق سلعته في كل موسم، لعلمهم بأن التجار البنادقة والصقليين والمالطيين وحتى الإسبان والكثير من الأوروبيين يأتون إلى طرابلس الغرب من أجل التجارة، بالإضافة إلى التجار العرب والمغاربة والأتراك.[4]

أصبحت طرابلس الغرب مركزا عالميا للتجارة؛ حيث يتوافد عليها التجار من كل مكان، وازدهرت المدن الساحلية ونشطت بها التجارة، وزاد ارتباطها بالسواحل الأوروبية خاصة، حيث يتم التبادل التجاري نقدا، نظرا لتطور التجارة وتشعبها مع العديد من الأطراف الداخلية والخارجية، حتى أصبح الطرابلسيون يفتخرون بثرواتهم ويتبجحون بذلك، مثلما فعل ذلك التاجر مع التجار الإسبان لما أخذ ياقوتة ودقها وذرها على الطعام[5]، وقد اعتمد الكثير من المؤرخين على هذه الرواية التي نقلتها العديد من المصادر لتصوير الحالة المعيشية المزدهرة لهذه البلاد قبيل الاحتلال الإسباني لها[6]، ومع ذلك لا يمكننا تعميم هذه الحالة على كامل البلاد نظرا لطبيعتها الصحراوية القاحلة وامتدادها الجغرافي الشاسع واختلاف طبائع

---

[1]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص97.

[2]- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص120.

[3]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص98.

[4]- إتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة1911، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا،1991، ص 147.

[5]- أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص 143.

[6]- خليفة محمد التليسي: المرجع السابق، ص 97.

سكانها بين البدو والحضّر، والفقير والغني والمنفتح على العالم الخارجي والمنغلق على نفسه وباديته ومدينته، لأنّ المصادر المعاصرة نقلت لنا حقائق لا تدع مجالا للشك أنّ البلاد كغيرها من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين، كانت تعيش في ذلك الوقت حياة اقتصادية صعبة[1] بسبب الحروب الطاحنة والاختلاف حول الأراضي والمراعي، لأن المغرب الإسلامي في ذلك الوقت لم تكن له سلطة مركزية تضبط الأمن وتحمي الاقتصاد وتُنهي الخلافات، فهل يعقل أن تتطور بلاد ما بدون أمن وعدل واهتمام من الحاكم والرعية بالجانب الحضاري لأي أمة.

2-3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

تشكلت البنية السكانية في بلاد طرابلس الغرب قبيل التواجد العثماني من عنصرين رئيسيين هما: الأمازيغ والعرب، كبقية البلدان المغاربية منذ الفتح الإسلامي في بداية القرن الأول للهجرة "22هـ"، حيث اندمج العنصران وتعايشا مع بعضهما البعض، بفضل الإسلام الذي كان الدعامة الأساسية لهذا التعايش والتمازج والاندماج، خاصة بعد رسوخ وتجذّر المذهب المالكي الذي اتخذه المغاربة مذهبا رسميا لهم مفضلينه على بقية المذاهب السنية والخارجية والشيعية الأخرى، هذا ما عزز الوحدة بين العنصرين الأمازيغي والعربي، زد على ذلك لعبت اللغة العربية دورا بارزا في هذه الوحدة والتمازج بعد أن استطاعت القضاء على الكثير من العوائق التي كانت تحول دون الاندماج الكلّي لمكونات المجتمع الطرابلسي، حيث أصبحت اللغة الرسمية للبلاد، جاعلة من اللغات المحلية الأخرى تنحصر بين القبائل والأقليات التي تتخاطب بها فيما بينها فقط، ولذلك لعب الإسلام واللغة العربية دورا بارزا وفعالا في وحدة مكونات المجتمع الطرابلسي.[2]

من أهم القبائل الأمازيغية التي عمرت وسكنت بلاد طرابلس الغرب نذكر: قبيلة زناتة، زوارة، مغيلة، لواتة؛ ومضاربها موجودة ببرقة، لبدة، زواغة، ودمر، هراطيل، بني توجين، بني مغرا، بني يفرن، وبني ورشفانة، وبني بازين، وقبائل نفوسة وهي من أكبر قبائل طرابلس وينتسب إليها "جبل نفوس" موطنهم الأصلي وتتفرع منها العديد من القبائل مثل بني زمور، بني مكسور، بنو ضرا وبنو والو، وهم من البربر البتر، هوارة. هولاي بين سرت وبرقة، ومسراتة ولهم مدينة تسمى باسمهم، وهم ذوي جاه ومال وكثرة، يمتهنون التجارة خاصة بمصر، التي كانوا يسافرون إليها انطلاقا من مضاربهم.

أما القبائل العربية فنذكر منها: قبائل "سعدى" وتنقسم إلى تسعة قبائل كلها تزعم أنها من سلالة بني هلال وبني سليم الذين غزوا المنطقة خلال القرن الخامس الهجري (422هـ) القرن الحادي عشر ميلادي، وقبائل المرابطين وتسكن

[1]- إسماعيل كمالي: المرجع السابق، ص40.

[2]- أحمد بك النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د.س.ط، ص17.

برقة[1]، ومن القبائل العربية أيضا قبائل النوائل غرب قابس، وفي الشرق قبائل بني دبّاب، التي تتفرع منها عدة قبائل منها: الجواري والمحاميد.[2]

بالرغم من غلبة الأمازيغ والعرب على البنية السكانية لطرابلس الغرب، إلاّ أنّ هذا لم يمنع من وجود أقليات إلى جانب هذين العنصرين مثل: الزنوج المتواجدين بالبلاد بحكم التواصل والحدود الجغرافية الموجودة بين طرابلس والبلاد الإفريقية، وكذلك كان يوجد اليهود بالرغم من قلتهم، وقد قتل الكثير منهم أثناء الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب سنة 1510م، وأُسر منهم حوالي خمسة آلاف آخرين[3]، وفي أواخر القرن الخامس عشر استطاع المهاجرون الأندلسيون تأسيس مدينة بن غازي. التي وفد إليها المهاجرون من مدينة طرابلس وبلدان المشرق، فتحولت بذلك إلى مستقر للتجارة والتجار المسافرين عبر البحر من المغرب الإسلامي إلى الإسكندرية والعكس.[4]

غلب على نمط المعيشة البداوة؛ لأنّ أغلبية السكان يسكنون البوادي ويمتهنون تربية المواشي، ولذلك غلب عليهم الترحال بحثا عن الكلأ والماء، فيما كان يسود بينهم نظام القبيلة والعشيرة، أمّا سكان المدن مثل طرابلس، لبدة، برقة، تاجوراء ومسراتة فقد كان يغلب على سكانها طابع التمدن والتحضر بسبب مواقعها واحتكاك سكانها بالأجناس الخارجية عن طريق رابطين أساسيين هما:

- عن طريق التجارة التي كانت عاملا رئيسيا لنمو وازدهار هذه المدن.
- عن طريق ركب الحجيج القادم من كامل بلاد المغرب والصحراء الإفريقية.

كانت مدينة طرابلس المدينة الوحيدة المزدهر بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أين يوجد رغد العيش ومستوى معيشة السكان التي كانت أحسن منها في مدينة تونس؛ وذلك بفضل قيام أهلها بدور الوسيط التجاري بين الطرابلسيين وغيرهم من الأجانب لاسيما مع البلدان الإفريقية، حيث استطاع أهلها تشكيل شبه نظام مستقل عن أيّ سلطة في طرابلس أو غيرها.[5]

أمّا فيما يخص الحياة الثقافية، فإنّ طرابلس الغرب لم تكن بها مدارس ومعاهد تعليم ومراكز ثقافية تضاهي مثيلاتها في حواضر بلاد المغرب الإسلامي مثل: فاس، وتلمسان، وبجاية، والقيروان، والزيتونة...ومع ذلك فقد عرفت

---

[1]- راسم رشدي: المرجع السابق، ص18.

[2]- إتوري روسي: المرجع السابق، ص 143.

[3]- شارل فيرو: المرجع السابق، ص172.

[4]- محمد دراج: المرجع السابق، ص 79.

[5]- نفسه.

البلاد حركة ثقافية وعلمية، نتيجة وقوعها في طريق ركب الحجيج وقوافل طلب العلم إلى المشرق الإسلامي خاصة الأزهر بمصر والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وقد تركزت أغلب المراكز العلمية بطرابلس، ومن أشهرها الجامع الكبير وجامع القائد عمورة.[1]

كان القادمون من الحجاج والعلماء وطلبة العلم من المشرق الإسلامي وتونس والمغرب الأوسط وحتى الأندلس عماد الحركة العلمية والثقافية بطرابلس، لأنهم ينقلون الأخبار العامة وأخبار الدول والأوطان، كما كانوا يقومون بنقل الكتب والمخطوطات والمتاجرة بها، بالإضافة إلى مهمة التدريس في جوامع ومساجد وقرى ومداشر البلاد، خاصة العلماء الكبار؛ الذين يسهرون على خدمتهم وراحتهم ودعوتهم أمراء وحكام البلاد، بالإضافة إلى عِليَّةِ وكبراء القبائل، لذلك وجدوا كل الرعاية والدعم. فاستغلوا الفرصة في تعليم أهل البلاد، فكان يجتمع إليهم عامة الناس وطلبة العلم للاستفادة منهم، وبذلك أصبح لهؤلاء العلماء طلبةٌ ينقلون عنهم العلم وينشرونه في كامل مناطق طرابلس الغرب[2]، فكانت تلك الصلات بين العلماء والمثقفين المغاربة تتقوى غالبا أثناء موسم الحج عن ركب الحجيج، التي كانت تنطلق من تازة بالمغرب الأقصى، مرورا بالمغرب الأوسط وتونس وطرابلس الغرب والإسكندرية والقاهرة لتصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، فكانت مناسبة للعلماء والمثقفين عامة للتعارف وتبادل المعارف ومزيدا من التكوين العلمي، وفي نفس الوقت يقومون بالتدريس تطوعا لبعض الوقت، وخلال ذلك تتاح لهم فرصة التعرف على النشاط الثقافي والتطورات العامة بالجهات التي يحلّون بها، وهكذا استطاع الطرابلسيون استغلال هذه الحركة الثقافية والعلمية لصالحهم، لأن بلادهم كانت همزة وصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، ومركزا لأخذ الراحة ومواصلة السفر باتجاه مصر ومن ثم باتجاه الحجاز والشام أو العودة إلى المغرب الإسلامي.

عرفت طرابلس الغرب العديد من العلماء عُرِفوا بغزارة علمهم وتبحرهم فيه، حتى ذاع صيتهم في كامل بلاد المشرق والمغرب، نذكر منهم: أحمد زروق البرنسي (846-899هـ/1442-1494م)، الذي كان فقيها ومحدثا صوفيا درس على يد نخبة من العلماء في ذلك الوقت منهم: عبد الرحمان الثعالبي، إبراهيم التازي، أحمد سعيد الحباك وغيرهم، وله عدة مؤلفات منها: شرح الإرشاد، شرح القرطبية للغزالي، شرح حقائق الإمام المقري في قطع الشتري ونونيته، شرح الأسماء الحسنى، النصح الأنفع[3]، قواعد في الصوفية، عُدّة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت؛ وهو كتاب جليل في موضوعه فيه مائة فصل بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية، وله أيضا مؤلف بعنوان تحفة المريد "الروضة" ومزيلا للبس عن أدب أسرار القواعد الخمس، وكتابة الكناشة، وشرح نظم بن البناء في التصوف، وتعليق

[1]- ناصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية – الجزائر، المغرب، طرابلس الغرب –، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص144.

[2]- إتوري روسي: المرجع السابق، ص ص 126،127.

[3]- أحمد بك النائب الأنصاري: المصدر السابق، ص 181-183.

لطيف على البخاري، وقد تتلمذ على يديه العديد من العلماء نذكر منهم: الشهاب القسطلاني، الشمس اللقاني، الشيخ زين الدين طاهر القسنطيني، الشيخ العالم محمد بن عبد الرحمن الحطاب وغيرهم، توفي بتكرين في مسراتة بطرابلس الغرب في صفر 899هـ/1494م.[1]

ومنهم أيضا محمد بن عبد الرحمان بن حسين أبو عبد الله الرعيني اشتهر بالحطاب؛ أندلسي الأصل، ولد بطرابلس الغرب سنة 861هـ/1457م أخذ العلم في بداية حياته على يد الشيخ محمد الفاسي، ثم رحل إلى مكة المكرمة مع أبويه سنة 877هـ/1472م، ليواصل طلب العلم على أيدي مجموعة من الشيوخ أبرزهم: ابن زهر محمد بن أحمد السخاوي قاضي المدينة المنورة، والإمام زروق والحافظ أبي الخير السخاوي وعبد المعطي الخطيب وغيرهم، وقد تتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم من أبرزهم محمد الخروبي، وولده محمد الحطاب، توفي سنة 944هـ/1537م.[2]

ومن علماء طرابلس الغرب أيضا محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب، إماماً علامةً ومحققاً بارعاً من سادات العلماء في عصره، عارفا بعلم التفسير، فقيها متضلعا في الفقه وأحواله مستنبطا للمسائل، عالما بعلم الحديث له دراية واسعة باللغة العربية وعلومها كالنحو والصرف...أخذ العلم عن والده الحطاب والعلامة أحمد بن عبد الغفار، ومحمد بن عراق، أخذ علم الحديث عن الإمام الحافظ عبد القادر النويري وابن عمه أحمد بن أبي قاسم النويري، وتعلَّم على يديه الكثير من طلبة العلم، كان أبرزهم عبد الرحمن التاجوري، ومحمد الفيش وولده يحي الحطاب ومحمد الفلاني، خلَّف العديد من المؤلفات أشهرها: "شرح مختصر خليل"، شرح مناسك خليل، هداية السالك، المحتاج لبيان فعل المعتمر والحاج، وغيرها من المؤلفات في اللغة والفلك والصلاة...توفي بطرابلس الغرب سنة 954هـ/1547م.[3]

ومن العلماء أيضا نذكر عبد العزيز محمد الأوس الأنصاري، أندلسي الأصل، انتقلت عائلته إلى طرابلس الغرب قبيل سقوط غرناطة أثناء استيلاء الجيوش الإسبانية على المدن الإسلامية بالأندلس، كان فقيها عالما له حظ واسع في العلم وباع طويل في الأدب وعلومه، أَسّس مسجدا بالقرب من طرابلس الغرب لإمامة الناس وتعليمهم، شهد استيلاء النصارى الإسبان على طرابلس الغرب سنة 916هـ/1510م، وخوفا من بطشهم و رفضا لاحتلالهم فرّ إلى جبل غريان وأَسّس جامعا هناك بوادي النخل، يعلم الناس ويؤُمّهم، مُعْرضا بذلك عن الدنيا زاهدا فيها، إلى أن توفي ودفن بجوار مسجده[4]

---

[1]- ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1212هـ/ 1908م، ص ص 45، 46.

[2]- أحمد بك النائب الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق، محمد زينهم، محمد غرب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، 1994، ص ص 97-99.

[3]- نفسه، ص ص99-102.

[4]- نفسه: ص ص 101-102.

لكننا لا نعرف تاريخ وفاته بالضبط، إلاّ أننا نؤكد أنه كان قبل سنة 1551م، لأن المؤلف ذكر أن ابنه أحمد عاد بعد تحرير طرابلس الغرب على يد العثمانيين.

ومن العلماء الطرابلسيين أيضا نذكر عبد الرحمن بن الحاج أحمد الطرابلسي الملقب "بالتاجوري"، فقيها وعالما، أخذ الفقه على يد شمس الدين اللقاني وأخيه ناصر الدين، درس الموطأ، التهذيب والرسالة وكان متبحرا في المذهب المالكي وعلاّمة زمانه بطرابلس، وكان يتقن اللغة اللاتينية التي تعلمها، وهذا يدل على اجتهاده واطلاعه على عدة ثقافات، وذلك لأنه لم يكتف بعلوم الدين بل اطلع على عدة لغات لاكتساب ثقافة عصره.[1]

وما نخلص إليه في الأخير أنّ طرابلس الغرب لم يكن بها من المعاهد قبيل الاحتلال الإسباني إلا بعض المساجد الصغيرة، التي استغلها بعض العلماء والشيوخ وطلبة العلم من أجل إحداث نهضة علمية وثقافية بين الطرابلسيين، مستغلين في ذلك العديد من العوامل المساعدة، نذكر منها:

1- استغلال مرور العلماء وطلبة العلم بطرابلس الغرب في رحلاتهم ذهابا وإيابا من المشرق أو المغرب الإسلاميين وبلاد السودان والصحراء الإفريقية لأخذ العلم عنهم ونشره ببلادهم.

2- استغلال ركب الحجيج الموسمي في خدمة العلم وطلبته، وهنا يجب الإشارة والتنبيه لدور "المغرب الأوسط" "الجزائر فيما بعد" كحاضرة علمية ينهل منها المتعطشين للعلم في كامل بلاد المغرب ومنهم الطرابلسيين الذين استغلوا هذه الحاضرة العلمية أحسن استغلال في طلب العلم ونشره بين ذويهم، بالإضافة إلى مدينة "تنبكتو" ذات الرصيد الحضاري ومراكزها العلمية الراقية، خاصة خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، حتى وإن قلّ هذا الزخم خلال الفترة المدروسة مقارنة بما كانت عليه سابقا.

3- قرب مدينة طرابلس الغرب من القيروان بتونس والأزهر بمصر كان له تأثيرا واضحا على الحركة الثقافية بالبلاد؛ فقد لعبت هاتان الحاضرتان دورا بارزا وساعدتا في انتشار العلم وظهور العديد من العلماء حتى ولو لم يكن في المستوى المطلوب مقارنة بالأقطار المغاربية الأخرى، إلاّ أنه ساعد في تبلور فكرة ظهور حركة علمية وثقافية بطرابلس الغرب، سرعان ما تلاشت بعد مفاجئة الإسبان للطرابلسيين واحتلال بلادهم، وبذلك قُضي على هذا المشروع في بدايته، فاسحين المجال لانتشار الجهل والأمية والتخلف، وهذا هو حال كل الاحتلال الأوروبي المسيحي عبر التاريخي الإنساني الطويل.

---

[1]- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج 1،2، تقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية، 1398هـ/1989م، ص 253.

3: أوضاع البلاد التونسية بداية القرن 10هـ/16م.

3-1-الأوضاع السياسية.

مرّت الدولة الحفصية بعدة تغيرات سياسية منذ تأسيسها سنة 600هـ/ 1204م ما بين قوة وضعف، إلاّ أنّ أهم وأخطر المراحل كانت بعد وفاة المستنصر في ذي الحجة 675هـ/1277م، حيث دخلت البلاد في فوضى سياسية عارمة، نتيجة للصراعات داخل البيت الحاكم، زاد الأوضاع خطورة سطوة الأعراب ونفوذهم بالبلاد، بالإضافة إلى التهديدات الخارجية، ولكن بتولي أبي العباس (772-796هـ/1370-1394م) بدأت البلاد تسترجع وحدتها، لتواصل الدولة تطورها وازدهارها وبسط نفوذها على كامل البلاد التونسية والطرابلسية وبعض الأجزاء من المغرب الأوسط[1]، وقد تزامن ذلك مع تولي حكام أقوياء لزمام الأمور في البلد، مثل: أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1397-1434م)، وأبو عثمان(839-893هـ/1436-1488م)[2]، الذي كان آخر السلاطين الأقوياء، فقد استطاع توحيد الدولة الحفصية وبسط سيطرته على البلاد، والحدّ من سطوة الأعراب والمتنفذين داخل البلاط الحاكم، وأعلن حربا لا هوادة فيها ضدهم، فمباشرة بعد توليه الحكم ظهرت العديد من حركات التمرد، وأعلنت بعض القبائل انفصالها، وأكثر من ذلك، تمرد أقاربه وأعلنوا العداء له، مثلما فعل عم أبيه أبو عبد الله أحمد الحسين وعمه أبو الحسن بن السلطان أبي فارس، إلا أنه استطاع القضاء على هذه التمردات، بالرغم من استمرارها لمدة طويلة قارب بعضها 17 سنة.

قام بالعديد من الأعمال كإعادة هيكلة الإدارات المحلية للحكم وتنظيمها وفق سياسته ومتطلبات عصره الرامية لبسط نفوذه على كامل البلاد وإخضاعها لسلطة مركزية قوية قادرة على الحكم بكل حزم وقوة، حتى أنه كان يخرج بنفسه على رأس الجيش في كل سنة لردع المفسدين، وبذلك استطاع تأمين الجبهة الداخلية، حتى قال فيه الشاعر:

أقلل ركابك في الفلا *** ودع الغواني للقصور.

فالقاطنون بأرضهم *** أشباه سكان القبور.[3]

بالإضافة إلى إنجازاته السياسية والعسكرية والإدارية بالداخل، حاول تأمين الجبهة الخارجية بإمضائه العديد من المعاهدات مع الدول والإمارات الأوروبية مثل: إمارة أرغونة التي وقّع معها معاهدة سنة 1452م، والبندقية، وجنوة

---

[1]- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1977، ص28.

[2]- أحمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د.س.ط. ص19.

[3] - أبو عبد الله محمد بن أحمد الشماع: الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م. ، ص ص 132،133

وغرناطة بالإضافة إلى مد جسور التعاون والتواصل مع محيطه الإسلامي ومنه الدولة العلية العثمانية[1]، وبوفاته سنة 893هـ/1488م عرفت الدولة الحفصية بداية الانهيار والتقهقر الكلي نتيجة انتشار الخلافات العائلية المدمرة حول الحكم ومزاياه، وعدم الاهتمام بالرعية والبلاد، وقد فقدت الدولة الحفصية بوفاة أبي عمرو عثمان شخصية بارزة لم يستطع أحد خلافته أو إعادة إنجازاته أو على الأقل المحافظة عليها فقط، وفي ذلك قال ابن أبي دينار: «...وبالجملة هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الإفريقية...»[2]، لذلك يمكننا القول أنّ وفاة أبي عمرو عثمان هي بداية النهاية للدولة الحفصية.

بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف والعمالة للأجنبي، حيث أصبح الحكام الحفصيين أُلعوبة بيد الإسبان والأعراب، وبذلك دخلت البلاد في دوامة عدم الاستقرار السياسي والضعف العسكري والانهيار الاقتصادي والتفكك الاجتماعي والتخلف الثقافي، كانت عواقب ذلك فيما بعد تسليم البلاد بسهولة للمحتلين الإسبان، وظهرت أولى بوادر الاحتلال هجوم بيدرو نافارو على جزيرتي جربة وقرقنة سنة 905 هـ/1500م.[3]

ما إن تولى الحكم أبو عبد الله محمد الحسن ابن عبد الله محمد المسعود (1494-1526م) حتى ضعفت الدولة وكادت تنهار نهائيا، وفقد السيطرة على الكثير من المدن والأقطار، وتمردت عليه العديد من القبائل، وعندما هم بقتالهم لم يجد من يعينه على ذلك؛ سواء جيشه أو المتعاونين مع من سبقه من القبائل والمرابطين، وفي هذه الأوضاع المتدهورة أعلن حكام القيروان تمردهم، فأراد أبو عبد الله محمد الحفصي إخضاعهم لسلطته، إلا أنه مني بهزيمة نكراء على مشارف المدينة رجع على إثرها خائبا إلى مدينة تونس يجر أذيال الحسرة والأسى، زاد الأوضاع تأزما إعلان جميع زعماء مدن طرابلس الغرب انفصالهم عن السلطة الحفصية.[4]

بعد وفاة أبي عبد الله محمد الحسن سنة 932هـ/1526م تولى من بعده ابنه محمد الحسن، الذي اضطربت الدولة في عهده وفقدت ما بقي لها من هيبة حتى وإن كانت في بعض المرات صورية فقط، وتأزمت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أكثر، وأمام فقدانه لأهم مقومات الحكم أعلنت مدينة سوسة انفصالها عن سلطته وشكلت إمارة مستقلة بذاتها، وتأكد انفصال مدينة القيروان نهائيا بقيادة الشيخ عرفة أحد المرابطين، الذي بايع بدوره أحد مشايخ قبيلة لمتونة اسمه يحي، الذي ادعى بأنه من الحفصيين القاطنين بالمغرب الأقصى، وبقيت مدينة القيروان على هذا الحال إلى غاية ضمها

---

[1]- روبار برشنفيك: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1-ط1-، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص283.

[2]- ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1226هـ/1869م.

[3]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص22.

[4]- إسماعيل كمالي: المرجع السابق، ص ص40،39.

من طرف درغوث باشا إلى ممتلكات الدولة العلية[1]، فيما خرجت جزيرة جربة نهائيا عن سيطرة السلطة المركزية الحفصية بتونس وحتى عن سيطرة البدو[2]، وبذلك استقلت هي أيضا بنفسها، فيما شكلت المدن الساحلية ومدن الجريد إمارات مستقلة بذاتها، لا يربطها بالسلطة الحفصية إلا دفع الجزية وقراءة الخطبة باسم السلطان، هذا الأخير الذي ظلّ محاصرا بمدينته تونس تحت رحمة حرسه المسيحي من المرتزقة ولا يقدر حتى على مغادرة قصره[3] بسبب ضعفه وخوفه من الأعراب، وللخروج من هذه الوضعية المزرية قرر التعاون الإسبان والدخول في طاعتهم.

نتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة، وفقدان الدولة لهيبتها، انهارت السلطة الحاكمة وفُقد الأمن وغاب الرادع ضد القوى المحلية التي أعلنت انفصالها في كامل البلاد وتوابعها، زاد الطين بلة ظهور الاحتلال الإسباني على السواحل المغاربية التي بدأت في السقوط الواحدة تلوى الأخرى، معلنة عن اقترب الخطر الإسباني من البلاد التونسية، خاصة بعد احتلال بجاية وعنابة وطرابلس الغرب، وبذلك أصبحت البلاد التونسية بين فكي كماشة، محاصرة بالاحتلال الإسباني من الشرق والغرب، زاد الأوضاع خطورة ظهور الإخوة بربروس على ساحة الأحداث في بلاد المغرب، ليحدث نوع من التعاون بين الطرفين في بداية الأمر ثم تحول فيما بعد إلى عداء كانت له عواقب وخيمة على كامل بلاد المغرب.

3-2-ظهور الإخوة بربروس على السواحل التونسية "حلق الوادي".

نشير في البداية أن تاريخ قدوم الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب عموما وتونس خصوصا يكتنفه الكثير من الغموض، بسبب تضارب المصادر التاريخية فيما بينها حول تاريخ أول قدوم إلى تونس، إلا أنه يمكننا القول أنّ مجيئهم كان ما بين 918 و919هـ/ 1512م و1513م، ودليل ذلك العديد من المعطيات ترجح هذه الفرضية، يمكن إيجازها فيما يلي:

- استنادا إلى ما ذكره خيرالدين في مذكراته فإن قدوم عروج إلى تونس كان بعد تولي سليم الأول الحكم سنة 1512م، وبداية الخلافات مع أخيه قرقود حول أحقية كل منهما في خلافة أبيه بايزيد الثاني، علما أنّ قرقود كان هو ولي نعمة عروج والحامي الأول له كما قال خير الدين، وخوفا من انتقام سليم الأول من أتباع قرقود، فرّ عروج من مدللي إلى أزمير ومنها إلى الإسكندرية في ضيافة قونصو الغوري سلطان دولة المماليك بمصر، أين قضى فصل الشتاء، وفي الربيع اتجه إلى جزيرة جربة بتونس، بعد القيام بعدة غزوات ناجحة ضد القراصنة الأوروبيين،

[1]- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 22.

[2] - أبو راس الجربي: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه، محمد المرزوقي، قدم له، حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1960، ص50.

[3]- جلال يحي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1999، ص54.

خاصة على سواحل قبرص[1]، ومن خلال هذه الرواية يمكننا القول أنّ أول اتصال بين الإخوة بربروس والتونسيين كان سنة 1513م، استنادا لتاريخ تولي سليم الأول حكم الدولة العلية، وقضاء الإخوة للشتاء في مصر ثم في الربيع كان المستقر بالأراضي التونسية (جربة).

- ذكر دي غرامونت أن سفر عروج إلى تونس كان سنة 1510م، وهذا في الحقيقة تاريخا بعيدا جدا عن الوقائع التي حدثت داخل البيت الحاكم العثماني، لأنّ في هذه السنة لا يزال بايزيد حاكما يتمتع بكامل صلاحياته ولم تحدث أي خلافات تحد من هذه الصلاحيات، اللهم إلا بعض الخلافات بين أبناءه، وبذلك كان عروج في مأمن وفي حماية قرقود الذي كان يتمتع بنفوذ قوي في البلاد، لذلك يمكننا استبعاد هذه الرواية لأننا لم نجد ما يعضدها، بل أنّ رواية خير الدين تفندها تماما، لأنه قريب جدا من الأحداث وكان أحد الفاعلين فيها.

- تأكيد مجهول في مخطوطه الخبر عن قدوم عروج رئيس للجزائر، أنّ عروج فرّ إلى مصر بعد الخلاف الذي نشب بين الأخوين سليم الأول وقرقود، وقضى الشتاء هناك بمصر ثم خرج للغزو في فصل الربيع وبعدها اتجه إلى جزيرة جربة من ناحية المغرب، التي كانت تابعة للسلطان الحفصي، علما أنّ الخلاف وقع بعد تولي سليم الأول الحكم بمؤازرة الجيش الإنكشاري، وهي رواية تؤكد رواية خير الدين، وترجح أن قدوم الإخوة بربروس كان سنة 1513م.

- رواية أخرى تؤكد تقريبا نفس الروايات السابقة؛ وهي رواية محمد المنويب الفراتي الصفاقسي، التي تكاد تتطابق مع رواية مجهول السابقة، فقد ذكر أنّه بعد وقوع الخلاف بين قرقود وسليم الأول هرب عروج إلى مدللي ومنها إلى مصر أين رحب به سلطانها قونصو الغوري، واشترط عليه عدم الإساءة للسكان المحليين، وفي الربيع خرج إلى الغزو فأخذته الرياح إلى جزيرة جربة بتونس، وهي نفس الرواية التي ذكرتها المصادر العربية الأخرى.

أما المراجع فتكاد تتفق على أن قدوم عروج وأخوته كان سنة 1513م؛ فعزيز سامح ألتر ذكر أن قدوم الإخوة بربروس إلى تونس دافعه العلاقة الحسنة التي تربط أبي عبد الله محمد الحفصي (1494-1526م) بالسلاطين العثمانيين منذ أن ساهم في إقامة صلح بينهم وبين المماليك سنة 1493م، في عهد بايزيد الثاني[2]، فيما رجح محمد دراج سنة 1513م كتاريخ لقدوم الإخوة بربروس إلى تونس[3]، وجاءت هذه الرواية موافقة لما جاءت به المصادر، وتقريبا كل المراجع حذت حذوه في تأكيد هذا التاريخ.

---

[1]- خير الدين: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة، محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 40-42.

[2]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 38، 39.

[3]- محمد دراج: المرجع السابق، ص ص182، 183.

وتأكيدا لما سبق نقول أنّ قدوم الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب خصوصا تونس كان سنة 1513م اعتمادا على ما سبق من الأدلة والبراهين، وأنّ الروايات القليلة التي ترجح ما قبل هذا التاريخ لا يوجد لها أيّ سند تاريخي اللهم إلاّ إذا كان هذا التواجد عرضا وبالصدفة، خاصة وأنّ المصادر تنفي هذا الطرح تماما، لأن بلاد المغرب كانت مركز استراحة لهم فقط، على عكس التواجد العثماني بالمغرب الإسلامي الذي سبق ذلك بكثير، لذلك نتخذ سنة 1513م كحدث معلمي لبداية تواجد الإخوة بربروس في بلاد المغرب.

3-3-الأوضاع الاقتصادية.

عرفت البلاد التونسية استقرارا سياسيا كبيرا خلال حكم الأسرة الحفصية، وقد أثر هذا الاستقرار إيجابا على جميع المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وحتى العمرانية إلى غاية وفاة السلطان أبي عمرو عثمان، فبوفاته بدأت الدولة الحفصية في التراجع والانهيار، لأنه تولى من بعده سلاطين ضعاف فاسحين المجال للدهماء والبدو والقوى الأجنبية المسيحية العبث بمصير العباد والبلاد، وبذلك شهدت الدولة الحفصية تراجعا وتقهقرا لم تشهد له مثيلا من ذي قبل في جميع المجالات؛ لأنّه لا يمكن الفصل بين الاستقرار السياسي وتطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأيّ بلد مهما كان، فكلما استقرت الأوضاع السياسية تطور الاقتصاد ونمت البلاد، وكلما تدهورت الأوضاع السياسية ساءت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ارتبط الإنتاج الزراعي في بلاد المغرب الإسلامي بالسواحل أين توجد الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة[1]، خاصة البلاد التونسية التي تحتوي على الأراضي ذات التربة السوداء والحمراء والنوعية الجيدة التي قل نظيرها في كامل بلاد المغرب والبلدان الأخرى، وقد اشتهرت بتنوع محاصيلها، كالقمح والشعير والزيتون والكروم، فقد تميزت مدن بعينها بإنتاجها الوفير وجودة محاصيلها، مثل: مدينة باجة؛ التي تتوفر على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة ذات الإنتاج الوفير، وفيها سهل خصب ينتج جميع الغلال والمنتوجات[2] لدرجة كانت اليد العاملة بها لا تكفِ لزراعة الأراضي الفلاحية، لذلك نجد الفلاحين بها يستنجدون بسكان المناطق البعيدة والبدو ومربي المواشي للزراعة وجني المحاصيل[3]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على توفر الأراضي وشساعتها وإنتاجها للعديد من المحاصيل ذات الجودة الرفيعة، حتى قال فيها الوزان: «...لو كان لتونس باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل...»[4]، هذا ما أدى إلى ازدهار المدينة ونموها، مما

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 88.

[2] محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، 1975م، ص74.

[3]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص66

[4]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص66.

كان له انعكاسا على الأسعار، حيث رخصت بها الأثمان[1]، بفضل نشاط أهلها وجِدّهم في زراعة أراضيهم والتمسك بها وعدم التفريط فيها، لأنها مصدر ثراءهم وعزهم في ذلك الوقت.

ومن المناطق الخصبة بتونس قرطاجة التي اشتهرت بجودة منتوجاتها وتنوعها، خاصة الخوخ والرمان والتين والزيتون، فقد كانت تزود العاصمة تونس بالفواكه والثمار، بسبب توفرها على أراض خصبة صالحة لجميع أنواع الزراعة، إلاّ أنّ المساحات الزراعية بها قليلة مقارنة ببعض المناطق التونسية الأحرى، لأنّ موقعها بين البحر والجبل حدّ من المساحات المزروعة بها.[2]

أما مدينة تونس فلم تكن في مستوى مثيلاتها من المدن كباجة وقرطاجة، فقد غلب على سكانها ممارسة النشاط الصناعي والتجاري، ومع ذلك كان بعض السكان يمارسون الزراعة خاصة زراعة القمح والشعير، إلا أنّ هذا النشاط يكاد لا يوفر حاجياتهم الغذائية، فنجدهم يلجئون للتزود بالقمح من مدن عنابة وباجة وأوريس.[3]

يمكننا إرجاع عزوف سكان مدينة تونس عن ممارسة النشاط الزراعي إلى عدة أسباب نذكر منها:

- نقص المياه؛ لأن لكل منطقة بئر خاص بها لسقيها، زاد الأمر صعوبة الطريقة البدائية لاستخراج المياه، لأن الفلاح التونسي كان يعتمد على آلة مكونة من ناعورة "عجلة" يحركها بغل أو جمل لسقي مزروعاته.
- غلبة العنصر المتمدن من سكان المدينة على الفلاحين، هذا ما أدى إلى هجرة خطيرة من الأرياف إلى المدينة أملا في ممارسة النشاط التجاري المربح، على حساب خدمة الأراضي ومتاعبها التي لا تكاد تنتهي، فكان لذلك أثر عكسي على الفلاحة في المدينة، التي فقدت أهم ركيزة ومحرك، ممثلا في الفلاح المؤهل الذي يعرف خدمة الأرض، وتُرك المجال مفتوحا لغير المؤهلين في خدمة الأرض للعبث بها، فقلَّ المنتوج وانكمشت المساحات المزروعة والمغروسة، فكان له عواقب وخيمة على الزراعة في مدينة تونس.
- انشغال الناس في مدينة تونس بالتجارة المربحة وغير الشاقة، خاصة التجارة مع الخارج، بالإضافة إلى ممارسة نشاط الصناعة، خاصة صناعة الشاشية التي عرفت بجودتها وتنوعها.
- الخوف من البدو الذين تسلطوا على بوادي مدينة تونس في غياب سلطة سياسية وعسكرية قوية تفرض الأمن وتطبق القوانين وتدافع عن البلاد والعباد، بل أكثر من ذلك أصبحت هذه السلطة عرضة لممارسات قاسية من

[1]- محمد بن عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص74.

[2]- مرمول كربخال: المصدر السابق، ص ص95، 96.

[3]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص70.

طرف هؤلاء البدو الذين فرضوا منطقهم وقوتهم عنها، هذا ما جعلها تستنجد بهم لقمع السكان والقبائل المتمردة وجمع الضـرائب منهم، ممّا اضـطر الأهالي للاعتماد على أنفسـهم، فأقاموا المنشـآت الدفاعية للاحتماء بها من هجمات البدو.[1]

الجدير بالذكر أن المزارعين الأندلسيين استطاعوا التأثير مباشرة في النشاط الفلاحي التونسي بعد هجراتهم الأولى، قبل وبعد سقوط غرناطة سنة 1492م، حيث قاموا باستصلاح الأراضي الخصبة خاصة الموجودة منها بالسواحل أين كان استقرارهم، وأدخلوا أساليب جديدة لم يألفها السكان المحليين، قدموا بها من مواطنهم الأصلية بالأندلس، فقاموا بإدخال النواعير "النوريات" ومدوا القنوات وأنشـأوا القناطر وحفروا الآبار وشـقوا السـواقي والطرقات إلى ضـيعاتهم، وأدخلوا مزروعات جديدة لبلاد المغرب عموما والبلاد التونسـية خصـوصـا، مثل السـبانخ والكراث واللارنج والفلفل والبطاطا والزعفران والباذنجان والقطن والحرير «تربية دودة القز" وطوروا واهتموا بزيادة غرس أشـجار العنب والزيتون والتين[2]، وغيرها من المزروعات الأخرى التي أبدع فيها الأندلسـيون وحققوا فيها نتائج فاقت كل التوقعات، وهذا في كثير من الأحيان بمساعدة السكان المحليين الذين رحبوا وآووا الفارين من القمع والاضطهاد الإسباني.

بمجرد استقرارهم أبدع الموريسكيون في زراعة الأراضي، التي تحولت إلى حدائق وبساتين خضراء تنتج جميع أنواع الخضر والفواكه، وتدين كلها بدهاء وعبقرية ورفعة ذوق الوافدين الجدد، فقد تنوعت المزروعات وغلب عنها الإتقان والجودة خاصة الحدائق الخاصة والعامة ذات الترتيب المحكم والملائم للذوق والفطرة السليمة والتطور الزماني والمكاني الذي يلائم ذلك الوقت.[3]

أما الصناعة فقد تركزت بالمدن الساحلية، أين ازدهرت وتطورت وكان لها نظامها الخاص بها وقوانينها التي تتحكم فيها، التي تنظم العلاقات بين الحرفيين والصـناع، وقد تركزت الصـناعات والحرف اليدوية بالمدن الكبرى مثل تونس وصفاقس وباجة والقيروان وسوسة والمهدية وغيرها حيث حافظت هذه الصناعات على الموروث الحضاري المتوارث على الآباء والأجداد، معتمدين في اسـتمرارها وديمومتها على المواد الأولية الموجودة والمصـنعة محليا، مثل الصـوف والجلود والأخشاب والمعادن والحَلْفاء.[4]

---

[1]- محمد دراج: المرجع السابق، ص 80.

[2]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص69.

[3]- روبار برنشفيك: المرجع السابق، ص 378.

[4]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص93.

انتشرت صناعة النسيج بكثرة، خاصة بمدينة تونس التي كانت تنتج كميات كبيرة جدا من القماش رفيع الجودة، الذي كان يسوق محليا، والفائض من المنتوج يصدر إلى بلاد المغرب الإسلامي وإفريقيا كلها بأثمان باهظة نظرا لنوعيته الجيدة، وقد كان يشترك في صناعة هذا القماش الرجال والنساء على حد سواء.[1]

كانت مدينتا زغوان وتونس رائدتان بمصانعهما الخاصة في صناعة الشاشية التي تحظى بشهرة واسعة عند كل المسلمين في إفريقيا[2]، وكذلك صناعة الكتان والصوف والحرير، وقلّما تجد حارة أو حيّا لا يوجد فيه مصنع أو بيت مختص بهذه الحرف، بالإضافة إلى مدينة باجة التي اشتهرت بصناعة الشالات عالية الجودة والبطانيات الصوفية الجيدة، تشترك معها مدن ومناطق أخرى مثل: مدينة توزر ومناطق الجريد المختصة بالمنتوجات الصوفية والبرانس[3]، التي كانت حرفة أغلبية السكان المغاربة الذين أبدعوا في صناعتها بسبب توفر موادها الأولية مثل: الوبر الموجود في كامل بلاد المغرب الإسلامي الذي اشتهر سكانه بتربية الإبل بكل أنواعها.

تضم أسواق المدن التونسية الكبرى عددا كبيرا من التجار والحرفيين الذين زاد غناهم نتيجة الأرباح التي تدرها عليهم هذه الصناعات والاتجار بها، وأمام تزايد هذه النشاطات ارتأى التجار والباعة إلى تنظيم الأسواق بطريقة رائعة تعبر عن ذكائهم وإتقانهم لمهنهم، فقد تنظموا في شكل مجموعات؛ لكل مجموعة أو حرفة رئيسها الخاص بها، ولكل سلعة مكانها الذي تباع وتسوق فيه، كالصناع والعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلات بالسكر، وتجار العطور وصانعيها وصناع الحرير والخياطين والسراجين والخبازين واللبانين والفاكهانيين والقصابين "الجزارين" وغيرهم من الحرفيين الذين يمارسون نشاطهم في هذه الأسواق.[4]

أما الصناعات الأخرى كالأسلحة والبارود وصناعة الخشب والحليّ والذهب والفضة والجلود وبناء السفن؛ وبالرغم من عدم تطورها مقارنة بالنشاطات النسيجية، إلاّ أنّ البلاد التونسية شهدت اهتماما بهذه الصناعات بسبب توفر المواد الأولية محليا ووجود اليد العاملة المحلية المؤهلة، وقد تركزت هذه الصناعات ببعض المدن مثل: مدينة تونس، حلق الوادي، جهات الوطن القبلي، زغوان، قرنبالية وسلمان، وقد ساهم اليهود والأندلسيون المهاجرون في تطويرها والمحافظة عليها، بالإضافة إلى أهل البلاد الذين كانوا عماد هذه الصناعات[5]، بحكم تعودهم على ممارستها وانتقالها إليهم عن طريق

---

[1]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص74.

[2]- مرمول كربخال: المرجع السابق، ص21.

[3]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص95.

[4]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص75.

[5]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ص 96-100.

آبائهم وأجدادهم الذين أوصوهم دائما بالمحافظة على هذا الموروث الحضاري المحلي، ولذلك امتزجت أموال اليهود وإبداع الأندلسيين وخبرة التونسيين، فأعطت إنتاجا ذا جودة عالية يكاد يقل نظيره في كامل البلاد المغاربية والإفريقية والأوروبية.

أما في الأرياف فقد انتشرت صناعات موجهة للاستهلاك والاستعمال المحلي مثل: السروج وبعض أنواع المجوهرات، والخيم وبعض الأواني التقليدية التي تصنع من الحلفاء مثل: أواني الأكل كأطباق الخبز وأواني شرب الماء والحليب، خاصة وأن الأرياف كانت مناطق رعوية بالدرجة الأولى، فكان يشترك الرجل والمرأة في صناعة هذه الأواني وتسويقها محليا، أين تباع في أسواق منظمة بالرغم من صغرها وقلة عدد روادها، بحكم قلة عدد سكان الأرياف وبُعدهم عن بعضهم بمسافات بعيدة جدا ونقص وسائل النقل التي كانت بدائية في ذلك الوقت مثل: الحمير والجمال والبغال والخيول، وطبيعة العنصر البدوي الذي يفضل التنقل والترحال من مكان إلى مكان، ومع ذلك كانت هذه الأسواق أماكن مفضلة لتجار الأرياف والمدن الصغيرة للبيع والشراء، حيث تعقد أسواق يومية أو أسبوعية في ساحات واسعة ورحبة يجد فيها التجار والزبائن راحتهم، وتعرض فيها البضائع بالإضافة إلى الحيوانات كالأغنام والماعز والبقر والإبل في الهواء الطلق، ومن أهم هذه الأسواق: سوق الربض الشمالي وسوق الربض الجنوبي، زاد هذه الأسواق أهمية وتنظيما وجود ساحات خاصة تباع فيها السلع والحيوانات، مثل: ساحة الحلفاويين (نسبة إلى باعة الحلفاء)، وساحة التبانين (نسبة إلى باعة التبن)، ساحة الغنم، ساحة الخيل وساحة الماعز... وغيرها.[1]

ما يمكننا ملاحظته أن الصناعة في تونس بقيت محافظة على استمرارها على عكس الفلاحة التي تأثرت كثيرا جراء الظروف السياسية والعسكرية التي مرت بها الدولة الحفصية، لذلك كانت الأسواق منظمة تنظيما جيدا سواء في الأرياف أو المدن الكبرى، بفضل جهود السكان وأرباب هذه الصناعات والمهن بدون تدخل مباشر من السلطة الحاكمة التي كانت عاجزة في أغلب الأحيان عن فرض منطقها وقوتها، وبفضل نشاط التونسيين استمر هذا النظام العام للأسواق وأماكن التجارة، مُثْبتين بذلك وجود موروث حضاري راسخ عندهم توارثوه عن آبائهم وأجدادهم، خاصة خلال الحكم الحفصي الذي شجع على ترسيخ هذه العادات والتقاليد، وذلك بعدم التدخل المباشر في تسييرها أو فرض نظام خاص تابع للسلطة المركزية، ويرجع ذلك لسببين رئيسيين هما:

1- قناعة السلطة الحاكمة بعدم التدخل في شؤون العامة من منطق جباية الضرائب فقط، وترك أرباب ورؤساء المهن والصناعات هم المتحكمون والمسئولون مباشرة أمام السلطة.

[1]- روبار برنشنفيك: المرجع السابق، ص37.

2- عدم قدرة السلطة الحاكمة في فرض سيادتها على هذه الأسواق نتيجة عجزها أما أرباب هذه المهن، الذين كانوا يمثلون دولة داخل دولة، خاصة بعد تمكن العنصر اليهودي من فرض سيطرته على الأسواق، بفضل أمواله وتغلغله داخل دواليب السلطة ذاتها.

مع ذلك أعطى هذا التنظيم المتعارف عليه بين التونسيين نوعا من الاستقرار الاقتصادي على عكس المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية.

أما في مجال التجارة فيمكننا أن نميز بين نوعين من المبادلات التجارية بتونس، مبادلات داخلية محلية، ومبادلات خارجية مع أقطار المغرب الإسلامي وإفريقيا جنوب الصحراء والدول الأوروبية بسبب قرب تونس من الدويلات الإيطالية ومالطا وحتى أراغون وقشتالة، وقد ارتبطت هذه المبادلات التجارية بالأسواق الريفية وفي المدن، حيث تحولت هذه الأسواق إلى مراكز تجارية للجهات والمدن القريبة منها، وقد كانت المدن الكبرى مثل تونس، صفاقس، القيروان وباجة عماد النشاط التجاري التونسي، ساعدها في ذلك قربها من السلطة المركزية، أين يتوفر الأمن ويكثر النشاط الصناعي، وهذا ما دعم نمو الحركة التجارية وتطور الأسواق.[1]

عملت السلطات التونسية وأعيان المدن وأرباب المهن والصناعات على بناء الخانات والفنادق من أجل جذب التجار وتوفير الراحة لهم خاصة المسيحيين منهم، والذين كانوا ينقسمون إلى مجموعات حسب جنسياتهم كالكتالونيين، الجنويين والبنادقة.[2]

بما أن تونس لها سواحل مطلة على الجهة الجنوبية لأوروبا كمالطا، صقلية، سردينيا، نابولي وخدمة لمصالحها التجارية، أمضت سلطات الدولة الحفصية العديد من الاتفاقيات التجارية مع حكام هذه الدول، يتمُّ بموجبها تنظيم الحركة التجارية الخارجية وضبطها بقوانين، خدمة لمصلحة الطرفين الحفصي والأوروبي، خاصة الدويلات الإيطالية، التي توثقت علاقاتها مع تونس خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث تواصلت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بينهم، وساعدت النهضة في إيطاليا على ترسيخ تلك العلاقات، بل ازدادت متانة عمّا سبق. الأمر الذي حث العديد من الأمراء الإيطاليين مثل ألفونصو الشهم على استيراد بعض الحيوانات من تونس كالخيول والنعام والأسود للتفاخر والتباهي بها[3]، خاصة وأن هذه الحيوانات عرفت بجمالها وقوتها وندرة سلالتها في أوربا قاطبة، فكانت هذه الحيوانات مفخرة للأمراء الإيطاليين، فقد ساد خلال عصر النهضة التباهي بمثل هذه الحيوانات، بالإضافة إلى الزينة وإعطاء المنازل الفاخرة والقصور

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 101.

[2]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص74.

[3]- روبار برنشنفيك: المرجع السابق، ص293

المشيدة رونقا خاصا ومشهدا مؤثرا يسحر العيون، على عكس الدويلات المغاربية التي لم تكن بينها اتفاقيات رسمية تنظم الحركة التجارية وتضبطها عبر الحدود، ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

- **طبيعة المنطقة التي تعتبر امتدادا طبيعيا لبعضها البعض.**
- **تناحر الحكام المغاربة فيما بينهم نتيجة الصراع الحاصل بين حكام الدويلات الزيانية والحفصية والمرينية (ثم الوطاسية).**
- **عدم اهتمام الحكام بعقد اتفاقيات تجارية بسبب تأكدهم أن المغرب الإسلامي هو وحدةٌ تجارية لا يجب تقييدها باتفاقيات وقوانين تؤثر على سير النشاط التجاري بينها.**
- **لعب الاحتلال الإسباني دورا بارزا في تفكيك وحدة المغرب الإسلامي؛ لأن الحكام والمحكومين كان هدفهم كيفية التصدي للاحتلال الخارجي، بدل التفكير في تأسيس دولة موحدة سياسيا مثلما كان عليه الحال في عهد الموحدين والمرينيين، ولذلك غابت عن أذهان المغاربة فكرة عقد اتفاقيات تكون في صالح العباد والبلاد.**

نتيجة لهذه العوامل وغيرها نجد التبادل التجاري قائما بين السكان بصفة مستمرة بصرف النظر عن العراقيل.

كانت تونس والعديد من مدنها كطبلية، بنزرت، سوسة، وجربة تنتج العديد من السلع توجه إلى الاستهلاك المحلي والفائض يصدر إلى الخارج؛ مثل زيت الزيتون الذي كان ينتج بكميات معتبرة تكفي لسد حاجيات السكان والفائض منه يصدر للخارج كمصر، بالإضافة إلى تصدير المنتوجات النسيجية إلى أوروبا خاصة أراغون ومالطا وميلان، بالإضافة إلى تصدير الأسماك التي اشتهرت تونس بجودة منتوجاتها وكثرتها، فقد كان يستهلك على نطاق واسع، خاصة بمدينة تونس التي يكثر بها العديد من الأنواع، خاصة النوع المسمى "البقنوس" الذي لا يوجد مثيله في ذلك الوقت إلا بتونس[1]،فقد كان يغطي الحاجيات المحلية والفائض يوجه للتصدير.

وقد شجع الحفصيون نشاط التجارة البحرية التي كانت مزدهرة بالسواحل والموانئ التونسية، وتركوا الحرية للتجار وأرباب المهن للسيطرة على الأسواق والتجارة الخارجية، فيما اكتفت السلطات الحاكمة بجباية الضرائب[2] وأخذ حصتها من المعاملات التجارية، تاركة الحرية لعبور السلع والمنتوجات من وإلى البلاد التونسية.

[1]- عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص144.

[2]- محمد الهادي الشريف: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب، محمد الشاوش، محمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 2002، ص56.

أما داخليا فقد كانت التجارة نشـطة، إلا أن تسـلط البدو والدهماء في البوادي والأرياف في بداية ضـعف الدولة الحفصية أثر على التجارة بكل أنواعها في المدن البعيدة والأرياف، وبذلك قل النشاط وهجر السكان الأراضي الفلاحية والنشاطات اليدوية فاسحين المجال للأعراب والبدو للسيطرة على تونس ومقدراتها.

ما يمكن ملاحظته في الأخير أن تونس بدأت تفقد الكثير من مميزاتها الاقتصـادية في نهاية القرن الخامس عشـر وبداية القرن السـادس عشـر خاصـة بعد اكتشـاف العالم الجديد وانتقال طرق التجارة العالمية ومسـالك العملة والمعادن الثمينة من البحر الأبيض المتوسـط إلى المحيط الأطلسـي عبر طريق الرجاء صـالح، وبذلك خرجت التجارة الأوروبية عن سيطرة الدول الإسلامية، فضعف بذلك اقتصاد المدن التونسية الكبرى، وحرمت الدولة الحفصية من الموارد الخارجية التي كانت تحصـل عليها من الجهاد البحري أو التجارة مع الدول الأوروبية، زاد الأوضـاع تأزما ظهور الدولة العلية العثمانية على مسـرح الأحداث، والتي سـوف تنتقل إليها زعامة العالم الإسـلامي، وبذلك سـيطرت على موارد الدولة الحفصـية الداخلية والخارجية، بعد صراع مرير مع السلطات الإسبانية المتحالفة مع الحفصيين والأعراب.

3-4-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

كغيرها من بلاد المغرب الإسـلامي تشـكلت البنية السـكانية لتونس في نهاية القرن الخامس عشـر وبداية القرن السادس عشر وقبيل التواجد الأندلسي الموريسكي من عدة مكونات عرقية ومزيجا بين العرب والأمازيغ اللذان اندمجا مع بعضـهما البعض بفضـل الدين الإسـلامي والعقيدة الواحدة والمذهب المالكي الذي وجد التربة الخصبة للازدهار والتجذر، حيث اتخذه المغاربة حكاما ومحكومين كمذهب رسمي لهم على حسـاب المذاهب الأخرى، تدفعهم في ذلك عدة أسـباب نذكر منها:

- الدور البارز الذي لعبه العلماء المغاربة في نشر وتثبيت المذهب، ومن أبرز هؤلاء الإمام سحنون وأبي زيد القيرواني.
- طبيعة المذهب المالكي المعتدل وإتباع سنة الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من طرف الإمام مالك، جعل المغاربة أكثر تعلقا بهذا المذهب لأنه يمثل الوسطية بكل معانيها.
- البسـاطة التي يتسـم بها السـكان المغاربة جعلهم يتقبلون المذهب المالكي المبني على الاعتدال وتيسـير الفتوى، فوافق ذلك طبيعتهم فتقبلوه عكس المذاهب الأخرى المتسمة بالتشدد والتعقيد في الكثير من الأمور.
- تشجيع الحكام بتونس للمذهب المالكي وللعلماء والسادة المالكية، حيث اتخذوه كمذهب رسمي للدول المتعاقبة؛ والناس على دين ملوكهم.

بالإضـافة إلى عوامل أخرى جعلت المذهب المالكي يكون سـببا من أسـباب الألفة والاتحاد بين التونسـيين، خاصـة وأن اللغة العربية لعبت درا بارزا وهاما في هذه الألفة، لأنها كانت ولازالت اللغة الرسمية، ولغة التواصـل بين جميع مكونات المجتمع التونسـي حكاما ومحكومين، بالإضـافة إلى اللغة الأمازيغية التي أتقنها الكثير من التونسـيين باعتبارها لغة السـكان الأصـليين قبل الفتح الإسـلامي بحكم أن تونس تسـكنها العديد من القبائل الأمازيغية المنتشـرة والممتدة في كامل بلاد المغرب الإسلامي.

من أهم القبائل الأمازيغية التي سكنت الشمال التونسي نجد قبيلة هوارة التي امتزجت واندمجت اندماجا تاما مع القبيلة العربية بني هذيل التي تنتمي للعرب المضـرية، وقد اسـتوطنت بالمكان الواقع بين البحر وباجة، بالإضـافة إلى قبائل ونيفة (ونيفان) التي سـكنت مدينة الكاف، وقبائل ورغة وشـتاتة اللتان اسـتوطنتا التل التونسـي الأعلى، وقبيلة سماتة والمركجسية؛ وهي فرع من فروع قبيلة أفرن التي اشتهرت بزراعة الأرض وتربية المواشي.[1]

أما أهم القبائل العربية فنجد قبيلة رباح، وبنو حبيب المنحدرتين من قبائل مرداس المتفرعة عن قبائل بنو سـليم، بالإضـافة إلى قبائل أولاد يحي التي اسـتوطنت منطقة تبرسـق، وقبيلة أولاد المهلهل، وكانت مضـاربهم منطقة التل الأعلى، ويرجع أصـلهم إلى قبائل أولاد عون المنحدرين في الأصـل من قبائل جامعة ومكثر، وقبائل الكاعوب الكبرى المنحدرة من بني سـليم وكانت متحكمة في كامل منطقة السـباسـب، بالإضـافة إلى هذه القبائل العربية نجد أن الكثير من الأندلسـيين سـكنوا البلاد التونسـية واسـتقروا بها واندمجوا فيما بعد مع بقية القبائل العربية والأمازيغية واسـتقروا في مدينة تونس، باجة، المهدية، سليمان وقرنبالية... .[2]

أما في المجال الثقافي فإن تونس أصـبحت منارة ومركزا علميا هاما في بلاد المغرب الإسـلامي قاطبة منذ الفتح الإسـلامي وتأسـيس مدينة القيروان؛ فقد امتد إشـعاعها العلمي إلى كافة إفريقيا فيما بعد، لذلك أصـبحت تونس ملتقى رجال العلم والمفكرين والعلماء والطلبة من كل الأنحاء، وفضاء واسعا للمناقشات الفقهية والعلمية والأدبية وميدانا خصبا لجميع الثقافات والآراء الفقهية على اختلافاتها، وبذلك فسـح المجال لتعايش ثقافي وعلمي قل نظيره في العالم الإسـلامي آنذاك، نتج عنه إخصابا علميا فريدا من نوعه، ترجم إلى مخطوطات كتب مازالت باقية وشاهدة على الزخم العلمي الذي أنتجه علماء ومفكرين وفلاسفة، بتشجيع من السلاطين والأمراء الحفصيين.[3]

---

[1]- روبار برنشنفيك: المرجع السابق، ص 334، 336.

[2]- نفسه: ص ص 334، 337.

[3]- يحي جلال: المرجع السابق، ص 54.

تشجيعا لهذه الحركة العلمية المخالفة لكل التوقعات –بسبب الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة الحفصية في كل المجالات–عمل السلاطين الحفصيين عموما على دعم ورعاية العلماء، الأدباء، الشعراء والفنانين وبناء وتشييد المؤسسات الثقافية والعلمية والدينية مثل: الكتاتيب والجوامع والمدارس والمكتبات التي أعطيت لها رعاية خاصـــة وعمرت بنفائس الكتب والمخطوطات، لذلك اشـــتهرت العديد منها مثل: مكتبة أبي زكريا الأول، التي احتوت على أكثر من 36000 كتاب، المكتبة الفارسية، المكتبة العثمانية والمكتبة العبدلية.[1]

انتشرت المدارس العلمية والزوايا بكثرة وذاع صيتها في كامل العالم الإسلامي مثل: جامع الزيتونة بمدينة تونس؛ الذي كان منارة علمية تضـاهي كبريات المدارس الإسـلامية في ذلك الوقت كالقرويين بفاس وتنبكتو والمدينة المنورة ومكة المكرمة والأزهر وغيرها، وقد كان يأتي إليه طلبة العلم من جميع بلاد المغرب الإسلامي والصـحراء الإفريقية لجودة التعليم به وتبحر علماءه وكثرتهم، بالإضافة إلى احتوائه على جميع المرافق الضرورية للإقامة والأكل والشرب، نتيجة لكثرة أوقافه وموارده المالية[2]، وأمام تزايد طلبة العلم وكثرتهم عمل السـلاطين الحفصـيين على توسـيع جامع الزيتونة، خاصـة مداخله ورواقه الخارجي.[3]

نال جامع الزيتونة شـهرة واسـعة؛ أين كانت تجري فيه المناظرات العلمية والفقهية والأدبية، حيث يكاد يكون الوحيد الذي بقي يؤدي رسالته العلمية على أحسن وجه في بلاد المغرب، التي بدأت تعرف تراجعا رهيبا في المجال العلمي، وزالت العديد من المراكز العلمية في بداية العصر الحديث مثل: بجاية وتلمسان وحتى القرويين والأزهر تراجعا بشكل رهيب في أداء رسـالتهما العلمية وفقدا بريقهما، فاسـحان المجال أمام البلاد التونسـية التي أخذت الصـدارة في بداية العصـر الحديث، فقد عرفت انتشـار العديد من المراكز العلمية التي تميزت بمسـتواها الراقي ونوعية برامجها ومناهجها التعليمية المحافظة على تقاليد الدولة الحفصية والحضارة الأندلسية، لاتصالها الوثيق باهتمام الحكام التونسيين، وبذلك اشتهر جامع الزيتونة الذي استطاع الصمود والمحافظة على مكانته وجودة التعليم به وكان دار علم وفقه بامتياز[4]، بالرغم من المنافسة التي كان يلقاها من طرف عديد الحواضر العلمية الموجودة بتونس في ذلك الوقت.

بالإضـافة إلى جامع الزيتونة كانت بتونس العديد من الحواضـر العلمية والثقافية الأخرى أبرزها مدينة المنسـتير التي كانت مركزا تعليميا و صـرحا ثقافيا بالبلاد التونسـية وعموم بلاد المغرب وإفريقيا، لأنها كانت مقصـد طلبة العلم من جميع هذه الأقطار للتعلم والتفقه في جميع المجالات الدينية –وخاصـــة الفقه واللغة– على أيدي نخبة من العلماء والفقهاء

---

[1]– أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص10.

[2]– الحسن الوزان: المصدر السابق، ص76.

[3]– يحي جلال: المرجع السابق، ص54.

[4]– عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص144.

من أهل البلاد والوافدين إليها من الخارج، ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد المنستيري النحوي واللغوي الذي أخذ العلم على يد نخبة من العلماء وأهل اللغة والمفكرين مثل ابن عرفة وابن خلدون[1] وصفه القلصادي في رحلته بقوله: «...لم يكن يعتني بأحد من أهل الدنيا ويعظمه وبه كان انتفاع طلبة تونس ومن يرد عليها بالنحو في زمانه، قرأت كتاب المعزب لابن عصفور وبعض "التسهيل" لابن مالك وكذلك الجمل للنحو نجي ...ولم أر أحفظ منه لكلام ابن عصفور ولا من يستحضر نصوص المتقدمين من النحاة مثله...»[2] وكان حيا سنة 848هـ/1444م.

لم تحدد لنا المصادر والمراجع تاريخ ميلاده ووفاته، ربما يرجع هذا لجهلها بهذين التاريخين، إلا أن الثابت لدينا أن هذه الشخصية أثّرت تأثيرا بارزا في مدرسة المنستير اللغوية التي كانت قد ابتدأت مع ابن عصفور، وكان لأبي عباس أحمد المنستيري أهمية علمية بالغة في المنستير وعموم تونس وحتى البلاد المغاربية، وامتدت هذه الأهمية إلى غاية إفريقيا بحكم أن تونس كانت مركزا علميا يقصده العلماء وطلبة العلم من كل مكان.

من العلماء الذين ذاع صيتهم بتونس العالم أبو عبد الله محمد بن أبي زيد المنستيري، الذي كان مربيا فذا وعالما متميزا، طلب العلم على يد نخبة من علماء القيروان، ثم انتقل إلى المنستير أين واصل تعليمه، ثم أصبح مدرسا بها، وألف كتابه "الرسالة"، ليخلفه ابنه أبو العباس أحمد الذي درس على يد والده وتوفي سنة 869هـ/ 1464م وقد أسس رباطا (زاوية لتربية المريدين) لطلب العلم يأتيه الطلبة من كل مكان، وقد ورثهما أبنائهما وأحفادهما في هذا الرباط إلى أن جاء الاحتلال الإسباني و قام بتهديم الزاوية وقتل طلبتها وعلمائها، وأسر عدد أخر منهم، وانتزع ما بقي من الزاوية وضمها لممتلكاته، لذلك فضل الأحفاد الفرار إلى زاوية سيدي ذويب بالمنستير لمواصلة مهمتهم النبيلة في نشر العلم.[3]

ومن علماء تونس أيضا نذكر أحمد ابن محمد ابن عبد الله الفلشاني التونسي، وكان فقيها وعالما ومحققا ضليعا ومتبحرا في العديد من العلوم، أخذ العلم على يد نخبة من العلماء منهم شيخ الجماعة أبي مهدي عيسى الغبريني وولده أبي عبد الله أدرك ابن عرفة وتعلم عنده، وليّ قضاء الجماعة بقسنطينة ثم بتونس بعد موت محمد ابن عقاب، ثم تولى التدريس بجامع الزيتونة، كان من أعلام المالكية، قام بشرح الرسالة، وصحيح البخاري، وجزء من صحيح مسلم وكتاب التهذيب توفي سنة 863هـ/1459م.[4]

---

[1]- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص80.

[2]- أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي: رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، الجمهورية التونسية، 1978م، ص ص 116 ،117.

[3]- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص 81.

[4]- أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص ص 116،117.

ومنهم أيضـــا أحمد عبد الرحمان بن موســـى بن عبد الحق اليزليطي القيرواني عرف باســـم "حلولو" ولد ســـنة 815هـ/1412م، أخذ العلم على يد نخبة من العلماء منهم البرزلي، عمر القلشـاني، قاسـم العقباني، ابن ناجي، والعديد من الشـيوخ منهم الشـيخ أحمد زروق، أحمد بن حاتم، عبد الرحمان الثعالبي، القلصـادي، وهو أحد الأئمة الحافظين لفروع المذهب المالكي والعديد من المذاهب الأخرى، وليّ قضـــاء طرابلس وتعلم على يديه في طرابلس أحمد بن حاتم بن محمد النبطي الصـنهاجي الفاسـي الطبيب، ثم عزل عن قضـاء طرابلس، وعاد إلى تونس فتولى مشـيخة عدة مدارس؛ أشـهرها مدرسة إبراهيم الأخضري، توفي بتونس سنة 898هـ/1492م، له عدة مؤلفات نذكر منها :

- شرح عقيدة الرسالة.
- شرح صغير على مختصر خليل.
- شرح كبير على مختصر خليل في 6 أسفار سمي "البيان والتكميل في شرح مختصر خليل".
- شرح ورقات الباجي في الأصول.
- مختصر نوازل البرزلي.
- شرح كبير على جمع الجوامع.
- الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع ـ لتاج الدين السبكي.
- شرح إشارات الباجي في أصول الفقه.[1]

إذن كانت المنسـتير قبل الاحتلال الإسـباني مركزا للعلم، فيه كل المرافق الضـرورية المسـاعدة على طلب العلم والتبحر فيه، حيث يجد كل طالب مسكنا يليق بمقامه، ومعلما يهتم به ويؤدبه ويعلمه القرآن وبقية العلوم الشرعية الأخرى كالحديث والفقه والقراءات واللغة والنحو...وغيرها، بالإضـــافة إلى ذلك يجد المأكل والمشـــرب وحتى الملبس في بعض الأحيان، وكل هذه الحاجيات مصـدرها الأوقاف وتبرعات المحسـنين الراغبين في فعل الخير من كل جهات تونس كقفصـة، نفزاوة، قابس، الوطن القبلي والقيروان وغيرها.[2]

أما القيروان فلم تعد في هذه الفترة المتأخرة كما كانت في ســـابق عهدها مدينة العلم والعلماء، حيث تحولت الصـدارة العلمية منها، خاصـة في العلوم الشـرعية إلى جامع الزيتونة والمنسـتير، وبذلك فقدت مكانتها العلمية التي عرفت

[1]- محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م، ص ص165، 166.

[2]- أحمد الطويلي: المرجع السابق، ص81.

بها في السابق، إلى درجة أن الحسن الوزان وصفها بالمدينة البائسة والفاقدة للأهمية العلمية، على عكس ما كانت عليه من قبل حيث قال: «...وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها حتى أن معظم فقهاء إفريقيا من المتخرجين منها، وبعد أن خرب الأعراب القيروان أخذت في الوقت الحاضر تمتلئ بالسكان، لكن بطريقة بائسة ...».[1]

ومع أن مدينة القيروان فقدت أهميتها العلمية بالمقارنة مع الحواضـــر الأخرى، إلا أنها بقية محافظة على بعض تقاليدها العلمية الســابقة، حيث يأتي إليها العديد من طلبة العلم من إفريقيا، إلى درجة أن مرمول كربخال شـبهها بجامعات باريس وجامعة سلامانكا بإسبانيا، حيث يقول: «... يتوافد طلاب المعرفة على القيروان من كل مناطق إفريقيا مثلهم كمثل الطلاب الفرنسيين الذين يحجون إلى باريس أو الطلاب الإسبان الذين يقصدون جامعة سلامانكا، وكل فريق من هؤلاء أو أولئك يعتز باغترافه العلم من هنا أو هناك ...».[2]

ما يمكن ملاحظته أن الحســـن الوزان ومرمول كربخال كلاهما يثنيان على القيروان في الفترة الســـابقة، ومع ذلك يمكننا القول أن المدينة في بداية القرن الســـادس عشـــر تحولت إلى مدينة خاوية على عروشـــها بفعل عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلي:

- غارات الأعراب المتتالية حولت المدينة إلى خراب، فقد هجرها طلبة العلم والعلماء، وحتى الصـناع والحرفيين، وفي ذلك يقول الحسـن الوزان: «...وبعد أن خرّب الأعراب القيروان أخذت في الوقت الحاضـر تمتلئ بالسـكان. لكن بكيفية بائســة ...»، يؤيده في ذلك مرمول كربخال حيث يقول: «... إلا أن الأعراب لم يقلعوا عن شـــن غاراتهم المتتالية عليها فالحقوا بها وباقتصادها أضرارا جسيمة...».
- نزوح الطلبة والعلماء إلى الزيتونة والمنســـتير لتوفرهما على الأمن واحتوائهما على جميع المرافق الضـــرورية لطلب العلم.
- عدم اهتمام السـلاطين الحفصـيين بهذه المدينة خوفا من الأعراب الذين تسـلطوا عليها وعجْز الجيش الحفصـي عن مواجهتهم، فاسحين المجال لهم للعبث بالمدينة وأهلها.
- موقعها في الصحراء جعلها بعيدة عن الاهتمام سواء من السلاطين أو العلماء وطلبة العلم.
- ابتعادها عن الســـاحل والطرق التجارية، وركب الحجيج أبعدها عن الاهتمام من طرف الناس خاصـــة العلماء والفقهاء وطلبة العلم.

[1]- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص91.

[2]- مرمول كربخال: المصدر السابق ص98.

كل هذه العوامل ســـاعدت في فقدان القيروان أهميتها العلمية في بداية العصـــر الحديث ومنعها من البروز أو على الأقل المحافظة على مكانتها العلمية التي اشتهرت بها خلال العصر الوسيط.

ما ميز الحياة الثقافية والعلمية بتونس توافد العديد من علماء الأندلس، نتيجة لســقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى بيد الإسبان، أين توجه هؤلاء إلى المغربين الأقصى والأوسط والبلاد التونسية، وقد شجع حكام الدولة الحفصية الوافدين الجدد وحرصوا على استقطاب العديد منهم إلى بلادهم، هؤلاء بدورهم وفدوا بكثرة لما لقوه من حسن المعاملة والتشجيع على الاســتقرار ودعم وعناية من طرف أغلبية التونســيين حكاما ومحكومين، وقد حمل الأندلســيون– خاصــة العلماء والمفكرين وعليّة القوم– معهم أنواعا عديدة من العلوم والفنون التي تعلموها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم بالأندلس، ولذلك أصبحت البلاد التونسية مركزا مهما لهذا الموروث الحضاري الرافد إليها، وميدانا لتزاوج حضاري غريب بين حضارة المشرق والمغرب الإسلاميين والأندلس، دعم هذا لتزاوج والإخصاب الحضاري الدين الإسلامي الذي جمع بين الحضارتين والثقافتين مُسْقطا كل العراقيل والفروقات والحساسيات الموجودة بين الطرفين، وبذلك كانت تونس أرضا خصبة لتعايش ثقافي قل نظيره في بلاد المغرب الإسلامي في ذلك الوقت.

ما نخلص إليه في الأخير أن البلاد التونســية في بداية العصــر الحديث ازدهرت بها الحركة الثقافية نتيجة لوجود مراكز علمية نشطة مثل: الزيتونة والمنستير اللتان تحملتا عبء مسؤولية نشر العلم وتشجيعه، حيث كانت البلاد التونسية مقصدا للعلماء وطلبة العلم من كامل بلاد المغرب الإسلامي وإفريقيا، وقد ساعد في نشاط وديمومة هذه الحركة الثقافية الســلاطين الحفصــيين الذين شــجعوا العلم والعلماء، وذلك بتوفير المأوى والمأكل والمشــرب وحتى الملبس، بالرغم من الصعوبات والمشاكل التي كانوا يعيشونها وحالة البلاد المضطربة، وهي من غرائب الأمور وندرتها، فهل يعقل أن نجد دولة تمر بأخطر مراحلها وهي على وشك الانهيار، تشجع الحركة الثقافية على عكس بقية النشاطات الأخرى، وبذلك واصلت تونس صدارتها العلمية وصيرورة حركتها الثقافية بالرغم من أخطاء حكامها في مجالات أخرى.

.ثالثا: المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط.

يعتبر التواجد العثماني ببلاد المغرب مبكرا، لأنه يعود إلى نهاية القرن الخامس عشــر ميلادي في عهد بايزيد الثاني الذي استنجد به الأندلسيون لإنقاذهم من بطش السلطات الإسبانية، وذلك بتواجد الإخوة بربروس برفقة يحي رئيس – وهو من أهم البحارة العثمانيين– بصــفة غير رسمية لأنهم كانوا مطاردين من طرف الســلطان ســليم الأول الذي دخل في خلاف حاد مع أخيه قرقود ومن ورائه عروج وإخوته؛ لأنهم كانوا يدعمون قرقود على حساب السلطان سليم الأول، وكان ذلك في حدود سنة 1513م، حيث اقتنع الإخوة بربروس بضرورة التوجه إلى السلطان التونسي أبي عبد الله محمد الحفصي

(1494–1526م) الذي كانت له علاقة ودية مع سلاطين الدولة العلية، منذ توسطه للقيام بمبادرة لإبرام صلح بين العثمانيين والمماليك في العهد بايزيد الثاني عام 1494م.[1]

عندما وصل الإخوة بربروس رفقة العديد من البحارة إلى تونس قدموا الهدايا إلى سلطانها أبي عبد الله الحفصي، ثم طلبوا منه أن يمنحهم مكانا آمنا يكون مركزا لهم لممارسة نشاطهم الجهادي ضد السفن المسيحية، وفي نفس الوقت مساعدة الأندلسيين وإنقاذهم من بطش الإسبان، ويقضون الشتاء في حمايته، وبعد أن شرحوا له كل ما يتعلق بهم وبنشاطهم، وافق السلطان التونسي على منحهم حلق الوادي مقابل دفع خمس الغنائم له[2]، إلا أن خير الدين أشار في مذكراته أنهم اتفقوا مع السلطان الحفصي على ثمن الغنائم وبيع غنائمهم بالأسواق التونسية حتى يستفيدوا من الأرباح في مقابل استفادة السكان المحليين من التبادل التجاري فيما بينهم، وبذلك تعم الفائدة على جميع الأطراف، وفي ذلك يقول خير الدين: «... نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم (8/1) ، فأجابهم سلطان تونس قائلا: إن ما تقولونه معقول جدا، فأهلا وسهلا بكم البلد بلدكم، أذن لنا السلطان بالرسو في ميناء حلق الوادي فقضينا الشتاء هناك...».[3]

من خلال هذا النص يتبين لنا أن الطرفين اتفقا على جميع الإجراءات الضرورية لاستقرار الإخوة بتونس، وقد رحب بهم السلطان الحفصي وأكرم وفادتهم في مقابل تبادل المنافع خدمة لمصلحة البلاد والعباد، إلا أنه يجب علينا طرح بعض التساؤلات التي نراها ضرورية حتى يمكننا فهم كيف كانت بداية هذه العلاقات:

- عندما وافق السلطان التونسي أبي عبد الله الحفصي على استقرار عروج وإخوته ومعهم يحي رئيس هل كان يعلم بتوتر علاقاتهم بالسلطان سليم الأول؟
- وإن كان يعلم بتوتر العلاقة هل غامر بالاتفاق مع الإخوة ؟، وخسر بذلك علاقاته الودية مع الدولة العلية العثمانية ممثلة في سلطانها سليم الأول؟، خاصة وأن علاقة الود بين الإخوة والسلطان التونسي لم تدم أكثر من سنة، لتتحول هذه العلاقة إلى عداء مستمر؛ عندما وجد عروج وإخوته السند الذي يعولون عليه ممثلا في السلطان سليم الأول، وبذلك ضحوا بعلاقاتهم مع أبي عبد الله الحفصي، وأكثر من ذلك اتفق الإخوة مع السلاطين العثمانيين على ضم تونس بعد ثبوت سيطرة الإسبان عليها وفقدان الحفصيين لشرعيتهم.

---

[1]- محمد دراج: المرجع السابق، ص183.

[2]- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص242.

[3]- خير الدين: المصدر السابق، ص ص 46، 47.

- هل خطط الإخوة بربروس لضم تونس؟ متبعين في ذلك سياسة التدرج والمرحلية لإرضاء سلاطين الدولة العلية العثمانية وفي نفس الوقت عزل الحفصيين عن السكان المحليين للسيطرة على الحكم؛ وبذلك خسر أبي عبد الله الحفصي الرهان عندما فضلّ علاقة الإخوة على السلطان سليم الأول الذي ربما كان يدعمه ضد الإسبان ويبقيه حاكما لتونس ومن بعده خلفائه الحفصيين !!

- هل كان لبعد الدولة العلية عن بلاد المغرب دورا في تشجيع السلطان الحفصي على المضي قدما في الاتفاق مع الإخوة بربروس خدمة لمصالحه الداخلية ممثلة في التصدي لهجمات البدو والأعراب المناهضين لحكمه؟، خاصة وأن البلاد في هذه الفترة عرفت تسلطهم وسيطرتهم على العديد من المناطق بالبلاد وانحصار السلطة الحفصية في العاصمة وأحوزها وخروج العديد من المناطق عن سيطرته كعنابة، بجاية، قسنطينة وطرابلس الغرب هذا من جهة، ومن جهة أخرى التعاون في التصدي للأخطار الخارجية ممثلة في هجمات القراصنة المسيحيين والاحتلال الإسباني القريب من بلاده بعد احتلاله للعديد من السواحل المغربية وسواحل المغرب الأوسط .

- هل كانت المصلحة الاقتصادية لتونس سببا في الاتفاق بين الطرفين؟ لأن أبي عبد الله الحفصي كان يفضل المصالح الاقتصادية لبلاده لأنها كانت تمر بمرحلة انهيار شديد في جميع المجلات، حتى يستفيد السكان من التجارة وغيرها من الأعمال المربحة التي يوفرها الإخوة بربروس نتيجة نشاطهم في الجهاد البحري، وفي نفس الوقت توفير مداخيل إضافية لخزينة الدولة نظيرا الثُمن من الغنائم، التي قد تحل بعض المشاكل الاقتصادية للدولة والرعية على حد السواء؛ مما ينعكس إيجابا على استقرار الأوضاع الداخلية ويبعد السلطة الحفصية عن فرض مزيد من الضرائب، هل كان لذكاء ودهاء الإخوة وحسن تفاوضهم وإصرارهم دورا في هذا الاتفاق؟ مما أثر على السلطان الحفصي الذي قبل تواجدهم على مضض لأنه كان يعلم بعلاقاتهم الحسنة مع السكان؛ وإلا بماذا نفسر انقلابه عليهم في أول فرصة تتاح له عندما رفض تزويدهم بالبارود أثناء محاولتهم الأولى لفتح بجاية سنة **1514**م، مفضلا تبعيته للإسبان والخضوع لهم على حساب الخاصة التي يريد تحقيقها، إلا أن السياق التاريخي للأحداث سيعطي الأولوية للإخوة بربروس الذين سيحققون االإخوة بربروس المشتركين معه في الدين والعقيدة.

وعموما قد تم الاتفاق بين الطرفين لأنه كان يحقق مصلحتهما، فقد كان لكل طرف حساباته وأهدافه وطموحاته لعديد من أهدافهم، وكانت البداية الفعلية للتواجد العثماني في بلاد المغرب من حلق الوادي بتونس، وفي نفس الوقت بداية النهاية لحكم الأسرة الحفصية والاحتلال الإسباني لبلاد المغرب الإسلامي، وكان أيضا إيذانا بتأسيس الإيالات المغاربية الحديثة التي ستلعب دورا محوريا وبارزا في التصدي للإسبان انطلاقا من بجاية التي كانت تابعة اسميا فقط للسلطان التونسي.

استمرت العلاقات الودية بين الإخوة بربروس والسلطان الحفصي حوالي سنتين، فقد كانت المصالح المشتركة والاحترام المتبادل هو السائد في هذه العلاقات، ففي ربيع 1513م خرج الإخوة للغزو واستطاعوا غنم العديد من السفن المحملة بالزيتون والعسل والجبن والحديد عادوا بها إلى تونس أين استقبلوا استقبال الأبطال من طرف السكان المحليين لكثرة الغنائم التي عادوا بها، وبذلك نالوا رضى السكان ومعهم السلطان الحفصي وفي ذلك يقول خير الدين: «...وصلنا إلي تونس على أصـــوات المدافع، مثقلين بالغنائم كالجبال، أخذ جميع الغزاة قدر ما يريدون من الغنائم وقمنا بفرز حصـــة السلطان وتصدقنا بمال كثير على الفقراء، فنلنا منهم كثيرا من الدعاء... هذا وقد كان من بين الغنائم التي حصلنا عليها: سبعون أو ثمانون ببغاء وعشرون بازيا قمنا بإهدائها إلى سلطان تونس...»[1]، من خلال هذا النص يمكننا استنتاج بعض الحقائق :

- **حصول الإخوة بربروس على غنائم ضخمة انطلاقا من مدينة تونس ذات البعد الاستراتيجي في حوض المتوسط.**
- **بداية ظهور القوة الفعلية للأخوة بربروس.**
- **مخاطبة السلطان الحفصي بلقبه –السلطان–دليل اعترافهم بسلطته على البلاد.**
- **وفرة الغنائم التي وزعت على البحارة والسكان المحليين والسلطان الحفصي.**
- **لم يأت ذكر السلاطين العثمانيين بتاتا في هذه المرحلة، دليلا على أنه لا يوجد أي اتصال بين الطرفين خلال هذه المرحلة نظرا للخلافات الموجودة بينهما، وفي نفس الوقت دليلا أيضا على استمرار العلاقات الودية مع السلطان الحفصي.**

بعد هذه الألفة بين الطرفين جاءت مرحلة ثانية في العلاقات السلطان الحفصي بالأخوة بربروس خاصة بعد المحاولة الثانية لتحرير بجاية سنة 1514م بعدما استطاع عروج وخير الدين فتح جيجل سنة 1512م واتخاذها كمركز متقدم لمقاومة الاحتلال الإسباني، وأثناء حصار بجاية واشتداد المعارك بين الإخوة والإسبان نفذ البارود للإخوة فبعثوا للسلطان الحفصي لتزويدهم به، إلا أنه تماطل في تحقيق طلبهم ذلك، فكان من أهم أسباب عدم فتح بجاية هذا الموقف المتخاذل من السلطان.[2]

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل فعلا هذا هو السبب الحقيقي لهذه الخلافات؟ ويمكننا ترجيح بعض العوامل الأخرى التي نذكر منها:

---

[1]- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص ص 48،49.

[2]- حاجي خليفة: تحفة الكبار في أسفار البحار، تحقيق وترجمة، محمد حرب، تسنيم حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، إستانبول، تركيا 2017/1438م، ص86.

- كان للاتصال الرسمي الذي حدث بين الإخوة بربروس والسلطان العثماني سليم الأول دورا مهما في توتر العلاقة بينهم وبين السلطان الحفصي أبو عبد الله، وقد كان هذا الاتصال في حدود سنة 1514م، أين كان الإخوة متمركزين بتونس، لذلك عده السلطان الحفصي تهديدا مباشرا لعرشه وبلاده، وكان ذلك مدعاة لشكوكه في نوايا البحارة العثمانيين الذين يريدون السيطرة على بلاده بمساعدة سليم الأول حسب اعتقاده.

- تزامنت رحلة بيري رئيس إلى إستانبول مع وصول وفد من أعيان بجاية إلي تونس لطلب نجدة الأخوة بربروس ومساعدتهم على طرد الإسبان من مدينتهم[1]، وهذا ما اعتبره السلطان الحفصي تعديا على حقوقه من جهتين:

- تعتبر بجاية من ممتلكات دولته ويجب طلب الدعم منه وليس من غيره.

- تعظيم وفد بجاية لعروج وخير الدين وتجاهل السلطان الحفصي، مما أوقع هذا الأخير في حيرة من أمره اتجاه هذا الموقف غير المقبول في الأعراف والتعامل مع الحكام، فأحس بالخطر لذلك قرر التخلص منهم في أقرب فرصة ممكنة.

- القوة التي أصبح عليها الإخوة بربروس بعد فتحهم لجيجل، وقدوم وفد بجاية إليهم، بالإضافة إلى المكانة المرموقة التي يحضون بها عند السكان التونسيين خاصة والمغاربة عامة، جعل السلطان الحفصي يخشى على عرشه منهم ويجاهر بعداوتهم.

- بعد اتخاذ الإخوة بربروس لجيجل كقاعدة لانطلاق نشاطهم الجهادي ضد الإسبان وغيرهم من المسيحيين، أحسوا أنهم بإمكانهم الاستغناء عن السلطان الحفصي، وليس لهم حاجة بالمقام بحلق الوادي ما داموا يملكون مكان أخر للتمركز ومواجهة الإسبان.

بعد زيارة مصلح الدين بيري رئيس إلى استانبول، بات من الواضح أن سياسة الدولة العلية الرامية للسيطرة على بلاد المغرب تتطابق تماما مع سياسة الإخوة بربروس الرامية لإيجاد مكان آمنا يحقق للدولة العلية أهدافها الهادفة لإكمال مهمة إنقاذ الأندلسيين الذين عجز الحكام المغاربة عن مساعدتهم بما في ذلك السلطان الحفصي، وبذلك حدث اختلاف في الرؤى بين الإخوة والسلطان الحفصي حول العديد من القضايا المهمة التي تخص تونس وكامل المنطقة، لأنه كان يرى في اندفاع الإخوة ومحاربة الإسبان يؤلب عليهم السلطات الإسبانية وتكون بلاده هدفا لهجماتهم المستقبلية.

بعد سفارة بيري رئيس اكتسب الإخوة بربروس حماية لا مثيل لها من طرف السلطان سليم الأول، لذلك تغيرت نظرتهم لسلطان تونس، فقد أصبحوا يحسون بنوع من الاستقلال عنه ويعاملونه وكأنه تابع للدولة العلية وليس

[1]- محمد دراج: المرجع السابق، ص 193

حاكما لدولة مستقلة بذاتها، وذلك ما نستشفه من خلال النص التالي الذي نقله لنا خير الدين حيث قال: «... لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أية حماية، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم...»[1]، وهذا دليلا على أن السلطان الحفصي تأكد من خطورة الإخوة على عرشه، ولذلك قرر التخلص منهم مهما كان الثمن .

وجه السلطان سليم الأول خطابا شديد اللهجة إلى السلطان الحفصي يأمره فيه –وليس يطلب منه– بتقديم المساعدة للإخوة بربروس مهما كان نوعها في مواجه الإسبان، وفي ذلك يقول خير الدين: «... إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصِّر في تقديم أي عون لخادمينا: عروج وخير الدين...»[2]، وهو تعدٍ صارخ لسلطان الدولة العلية على حقوق سلطان تونس الذي كانت بلاده في ذلك الوقت مستقلة، وهو ما اعتبره السلطان التونسي إهانة له يجب عدم تكرارها مرة أخرى، ولا سبيل لذلك إلا بالتخلص من الإخوة بربروس الممثلين الحقيقيين للسلطان العثماني، وبذلك بدأت العداوة تظهر جليا بين الطرفين.

رابعا: ظروف إلحاق الدول المغاربية (المغرب الأوسط، طرابلس الغرب، تونس) بالدولة العلية العثمانية.

1–انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العلية العثمانية سنة926هـ/1520م

كانت هناك سفارة من بلاد المغرب الأوسط بقيادة مصلح الدين قورد أوغلو رئيس إلى الإسكندرية في حدود923هـ/1517م ودامت حوالي شهرين، وقد وصل هذا الوفد ترافقه عدة قطع بحرية، وذلك أثناء وجود السلطان سليم الأول بالقاهرة، الذي احتفى بهذا الوفد وأمر له بمعدات وجنود، فعاد مصلح الدين بهذا كله إلى مدينة الجزائر كما ذكر ذلك خير الدين.[3]

أما دوافع هذه الزيارة والقرارات التي عادت بها من طرف السلطان العثماني فلا يوجد أي دليل على وجود رسالة أو خط همايوني أُرسل إلى خير الدين وعروج بل قد يكون الأمر حدث عرضا.[4]

ومع ذلك فقد استطاعت هذه السفارة توطيد العلاقة أكثر بين الطرفين، ومواصلة تأكيد حاكم السلطنة العلية دعمه للإخوة بربروس، وهذا ما نستشفه من خلال إرسال المعدات الحربية وبعض الجنود لهم.

---

[1]– خير الدين: المصدر السابق، ص 69.

[2]– نفسه: ص68.

[3] – نفسه: ص69.

[4] – محمد دراج: المرجع السابق، ص46.

ثم كانت سفارة أخرى في حدود سنة 925هـ/1519م بقيادة حسين آغا، وممثلا عن سكان مدينة الجزائر الشيخ أبي العباس أحمد بن القاضي، يقترحون على السلطان سليم الأول تبعيتهم للدولة العلية والدخول تحت حماية سلطانها ويتعهدون بقراءة الخطبة باسمه لأنهم بحاجة إليه، وهم مخلصون له في باطنهم وظاهرهم.

وتم هذا الأمر بعد استشهاد عروج سنة 1518م ومبايعة أهل مدينة الجزائر خير الدين حاكما عليهم، هذا الأخير الذي أعلن لأعيان المدينة بأنه لا يقوى على رد النصارى بمفرده[1] وقد رأى كثرة المؤامرات والدسائس التي يحيكها ضده الزعماء المحليين في مناطق مختلفة من البلاد، لذلك طلب منهم الاستنجاد بالسلطان العثماني، وفي ذلك يقول حاجي خليفة: «...وخطب خير الدين بك في أهالي الجزائر ، وقال لهم: إنني قد حميتكم حتى الآن، وعمرت القلعة وأصلحتها، ووضعت فيها أربعمائة مدفعا، وقد أذهب بعد ذلك إلى بلاد أخرى فعينوا من تريدونه واليا عليكم، وحينما سمعوا ذلك، أخذوا كلهم يرجونه ويتوسلون إليه قائلين: لا تتركنا، فقال لهم خيرالدين بك إن حاكم تلمسان وتونس من أعدائي، أما إذا أصبحت الخطبة باسم أبناء عثمان أبقى، فقبلوا ذلك... ».[2]

أُستقبل الوفد من طرف سليم الأول الذي بالغ في إكرامه، وبعد عدة مناقشات بين الطرفين وافق على طلبهم، وبعث بقرار تعيين خير الدين بايلرباي على الجزائر، مع سيف مرصع وخلعة سلطانية مذهبة وراية الإمارة وسفينتين محملتين بالأسلحة، يرافقهم 2000 جندي من الإنكشارية[3]، وهذا العدد من الإنكشارية يعتبر النواة الأولى للجيش البري بالإيالة الجزائرية.

كانت نتيجة استنجاد أهل مدينة الجزائر مقرونة بالبيعة الطوعية وليست ناتجة عن الحروب والغزو، فسلاطين الدولة العلية لم يكن في نيتهم ضم المغرب الأوسط بالقوة، لذلك لم يتردد السلطان سليم الأول في قبول هذه البيعة لأنها فتحت الطريق لوصول العثمانيين بسهولة إلى الحوض الغربي المتوسط، فكان ذلك إيذانا ببداية العهد العثماني في الجزائر الذي استمر من 926-1246هـ/1520م إلى 1830م.

2-إنضمام طرابلس الغرب إلى الدولة العلية العثمانية سنة958هـ/ 1551م.

على عكس الجزائر التي لم يستغرق انضمامها للدولة العلية أكثر من ثماني سنوات فإن طرابلس الغرب استغرق حوالي أربعين سنة لعدة اعتبارات منها:

---

[1] - جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص42.

[2] - حاجي خليفة: المصدر السابق، ص93.

[3] - أندريه ريمون: المدن العربية في العهد العثماني، ترجمة، لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981م، ص21.

- **لم تكن طرابلس بذات الأهمية عند العثمانيين كما هو الحال بالنسبة الجزائر، حتى وإن كانت قريبة من مصر.**

- **لعب وجود خير الدين وعروج بحلق الوادي بتونس دورا بارزا في تأسيس الجزائر على عكس طرابلس التي كانت بعيدة عن اهتمامهم، ربما ابتداء لأنها تابعة لسلطان تونس الذي كان معهما في وفاق.**

- **كان العثمانيون يريدون استعادة الأندلس لذلك كانت الجزائر الأقرب جغرافيا لتحقيق هذه الرغبة من طرابلس الغرب.**

- **لعب الأندلسيون دورا هاما وبارزا في توجيه السياسة العثمانية في المتوسط بداية القرن 16م حيث كانوا يريدون العودة إلى بلادهم عبر الجزائر.**

- **تمركز الأخوة بربروس بالجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط وترحيب السكان بهم لعب دورا في استقرارهم بالجزائر.**

- **الجزائر كانت مركزا للجهاد البحري خاصة جيجل سنة 1512م فيما لم يستطع البحارة الاستقرار بطرابلس الغرب لقربها من سكان مالطا والدويلات الإيطالية.**

- **حماس سكان الجزائر لعب دورا بارزا في استقرار الإخوة بربروس على عكس سكان طرابلس الغرب، حيث لم ينتفض سكانها داخليا ضد الإسبان وفرسان مالطا إلى غاية النجدة العثمانية على عكس الجزائريين الذين حرروا بلادهم بمساعدة لإخوة بربروس وبدون مساعدة الدولة العلية.**

هي كلها أسباب أخّرت انضمام طرابلس الغرب للدولة العلية العثمانية.

يعتبر مراد أغا أول حاكم في طرابلس الغرب يمثل السلطان العثماني، إلا أنه كان في تاجوراء وغريان إلى غاية تحرير طرابلس الغرب نهائيا في أوت 1551م حيث أصبح يتبع الحاكم الجزائري وليس مستقلا مثل الإيالة الجزائرية، وقد لعب مراد أغا دورا مهما في إعادة إعمار طرابلس الغرب واستقرارها منذ تعينه.

لكن الملاحظ أن تعيينه كان من طرف سنان باشا قائد الأسطول بتوصية من السلطان العثماني[1]، وليس بفرمان سلطاني مثلما يحدث مع حكام الإيالة لجزائرية، ويمكننا إرجاع سبب تعين مراد أغا على حساب درغوث باشا لعدة أسباب نذكر منها:

[1]- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص265.

- معرفته بالمنطقة لأنه سبق له وأن تم تعينه حاكما على تاجوراء لمدة فاقت 10سنوات.
- قربه من سنان باشا جعل هذا الأخير يعطي له الحق والأولوية في حكم طرابلس الغرب.
- طول مدته في مقاومة الإسبان شفعت له عند سنان باشا، لذلك كان تعينه جزاء له عن مجهوداته في مقاومة الإسبان.
- تخوف سنان باشا من طموحات درغوث باشا جعله يرفض تعينه على طرابلس الغرب، وتعيين مراد أغا بدله.
- شخصيته المحبوبة خاصة لدى سكان تاجوراء وغريال وغيرهما، وقربه من السكان المحليين أهله لهذا المنصب وجعل السكان يتقبلونه.
- الدعم المباشر الذي تلقاه من طرف السلطان العثماني شخصيا على حساب درغوث باشا؛ الذي رفض ذات مرة الامتثال بين يدي السلطان، هذا الأخير لم ينس له فعله ذاك، لذلك أبدي تخوفه من طموحات درغوث باشا الزائدة، على عكس مراد أغا الذي كان مقرب جدا من السلطان منذ صغره وإلى غاية تعينه كحاكم على تاجوراء.

كل هده الأسباب جعلت سلطان الدولة العلية يبارك تعيين مراد أغا حاكما على طرابلس الغرب تابعة لبايلرباي الجزائر، وبهذا التعين أصبحت طرابلس الغرب إيالة عثمانية.

3- إلحاق البلاد التونسية بالدولة العلية العثمانية سنة 1574م.

اشتد الصراع العثماني الإسباني على تونس، خاصة بعد توطيد الحكم العثماني بالجزائر وطرابلس الغرب نهائيا، وبذلك أصبحت الأسرة الحفصية والإسبان بين فكي رحى؛ الإيالة الجزائرية غربا وإيالة طرابلس الغرب شرقا، لذلك كانت المواجهة حتمية بين القوتين العظمتين في ذلك الوقت، زاد حرص العثمانيين على التدخل في تونس الاحتلال الإسباني للمهدية والمنستير وجزيرة جربة، إلاّ أن درغوت باشا استطاع تحرير هذه المناطق سنة 958هـ/1551م، وتم له السيطرة على القيروان، بعد أن استنجد به أهلها، وبذلك أزاح الأسرة الحفصية من حكم هذه المدينة، ونصب حيدر باشا خليفة له، وبذلك بدأ الحكم العثماني يتوطد ابتداء من القيروان، التي لعبت دورا بارزا فيما بعد في الفتح العثماني لتونس سنة 1574م.

في سنة 976هـ/1568م راسل سكان تونس علج علي طالبين منه تخليصهم من السلطان الحفصي، ومن أهم الشخصيات التي قامت بمراسلته، قائد الفرسان بن حيبارة، القائد الخضر، والوزير الأكبر أبو الطيب الخضار، وقد وصف لنا ابن أبي الضياف طريقة الغدر والخيانة من طرف السلطان لوزيره بقوله:«... أن أبا العباس (السلطان أحمد) تنكر لوزيره

أبي الطيب الخضار، وفكر في الوصول إلى اغتياله، وأحس الوزير بالشر فراسل صاحب الجزائر علي باشا في غزوة تونس وهون عليه أمرها، والتزم له بالإعانة وجعل في ذلك لنجاته من نكبة الحائمة عليه واتخذها يدا عند علي باشا...».[1]

ومع حلول سنة 977هـ/1569م، وبداية تراجع الثورة الموريسكية، قرر علج علي غزو تونس وضمها إلى الجزائر، مستغلا في ذلك دعوة ثانية وصلته من نفس الشخصيات التونسية باسم السكان المحليين، لذلك استغل انشغال الجيش الإسباني بالثورة الموريسكية بإسبانيا، وقام بالهجوم على مدينة تونس، وسيطر عليها سنة 1569م، حيث أُعلنت الخطبة وضربت السكة باسم السلطان سليم الثاني للمرة الثانية بعد سنة 1534م، وبذلك عادت مدينة تونس لحاضرة الدولة العلية العثمانية.

تدعم الحكم العثماني بقدوم فرسان الزمازمية (من قبيلة أولاد سعيد) إلى علج علي باشا وإعلانهم طاعتهم وولائهم للسلطان العثماني، حيث خاطبوه بقولهم: «...نحن سلطاننا دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مرد لحكم الله، فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم ننصرف وأرض الله واسعة...» فكان رد علج علي بقوله: «...فقد فعلتم واجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم فأنتم من جماعتنا...».[2]

استقرت الأوضاع للعثمانيين بمدينة تونس، إلاّ أن حلق الوادي بقيت تحت سيطرة الاحتلال الإسباني، أين حاول علج علي تحريرها إلاّ أنه فشل في ذلك، فقرر العودة إلى الجزائر تاركا وراءه رمضان باشا حاكما على تونس باسم السلطان سليم الثاني، يؤازره في حكم البلاد وتنظيم شؤونها واستتباب الأمن بها والدفاع عنها مابين 5000 و8000 جندي.[3]

أصبحت تونس تابعة للدولة العلية يسري عليها نظام الحكم العثماني مثلها مثل إيالة الجزائر وطرابلس الغرب، حيث أرسل السلطان سليم الثاني فرمان التعيين لرمضان باشا كحاكم على تونس، وقد تضمن هذا الفرمان ما يلي: «...حكم إلى القائد رمضان، قائم مقام وكيل أمير أمراء الجزائر (علج علي) في سوسة والمنستير وبلد الجريد وبنزرت من نواحي تونس يتضمن تعيينه على المناطق المذكورة...»' «...ذلك نزولا عند رغبة أعيان تونس الذين قاموا بتزكيته لدى السلطان العثماني...».

إذن خلال المدة الممتدة من سنة 1569م إلى غاية 1573م استطاعت الدولة العلية حسم الصراع في كامل بلاد المغرب لصالحها مستغلة الأزمات التي كانت تمر بها إسبانيا داخليا، خاصة الثورة الموريسكية، وخارجيا الصراعات ضد الدول الأوروبية، مما انعكس سلبا على مستعمراتها في تونس والجزائر، التي لم يستغل حكامها هذه الظروف ويطردون

[1] – ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 18.

[2] – نفسه: ص 19.

[3] – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 195.

الإسبان من وهران والمرسى الكبير، ومع ذلك لم تيأس السلطات الإسبانية بل حاولت قدر المستطاع العودة لاحتلال بعض مناطق المغرب الإسلامي، مستغلة معركة الليبانت وتدهور حالة الأسطول العثماني وتوابعه بالجزائر وطرابلس الغرب .

بعد معركة الليبانت أصيب دون خوان دوتريس بالغرور، منشوا بنصره في هذه المعركة، وقد قاد الأسطول الأوربي لانتصار كاسح ضد الأسطول العثماني، حيث توّجهُ الأوربيون بطلا قوميا قل نظيره في ذلك الوقت، فحاول استغلال وضعيته هذه وقرر الاستقلال بنفسه عن حكام أوروبا وإقامة مملكة خاصة به، فوقع اختياره على تونس، يستند في ذلك على بابا الكنيسة الكاثوليكية الذي قدم له كل الدعم والتشجيع.[1]

ومع أن فليب الثاني كان يراقب بحذر طموحات أخيه غير الشقيق دون خوان إلاّ أنه وافق على القيام بحملة ضد تونس سنة981هـ/1573م، لأنه كان يتطلع إلى القضاء على الإيالة الجزائرية التي زادت قوتها ونفوذها داخل بلاد المغرب وكانت تهدد السواحل الإسبانية ذاتها.[2]

استطاع دون خوان السيطرة على تونس بتاريخ 11 أكتوبر 1573م، فيما فر رمضان باشا وجنوده إلى القيروان أين استقبلهم الأهالي بحفاوة بالغة من طرف قبائل الشابية ، دليلا على تدعيمهم ووقوفهم إلى جانب العثمانيين ضد الإسبان، إلاّ أن ما يجب ملاحظته في هذا الخصوص أن العثمانيين لم يستطيعوا الحفاظ على تونس وإرساء نظامهم بها، مثل ما حدث مع إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب، لأن الإسبان استطاعوا القضاء على الحكم العثماني بسرعة، وبذلك تأجل تأسيس إيالة تونس إلى حين.

استطاع العثمانيون تجهيز حملة بحرية ضخمة بقيادة سنان باشا وعلج علي، اللذان وصلا بأسطولهما إلى سواحل تونس بتاريخ 13 جويلية1574م، لتبدأ المعارك يوم17 جويلية، حيث تم تحرير حلق الوادي أولا يوم 23 أوت، فيما تأجل تحرير تونس إلى غاية سبتمبر من نفس السنة.[3]

وتم هذا الحدث البارز في تاريخ بلاد المغرب بعد أن رأى القادة السياسيين والعسكريين في الدولة العلية أنه لا يمكن استقرار الحكم العثماني ببلاد المغرب مالم يتم القضاء نهائيا على الإسبان بتونس، وربط ممتلكاتهم ببعضها البعض، ولذلك أدرك العثمانيون خطورة هذا الاحتلال، فقرر سليم الثاني استعادة تونس، وقد تحقق له ذلك بعد معارك ضارية ضد

---

[1]- عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 244.

[2]- ألفونصو روسو: المصدر السابق، ص 97.

[3]- ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص 181.

الإسبان تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال[1]، لتعود تونس نهائيا إلى بلاد الإسلام وممتلكات الدولة العلية.

خامسا: تطور نظام الحكم في البلاد المغاربية.

1-نظام الحكم في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني.

عرفت نهاية القرن السادس عشر الميلادي تغير نظام الحكم بالجزائر، من نظام البيلربايات إلى الباشوات (995-1069هـ/1587-1659م)، حيث عرفت هذه المرحلة صراعا حقيقيا بين طائفة الرياس والانكشارية الذين استغلوا فرصة انصراف الرياس لمواجهة الأوروبيين في عرض البحر عززوا نفوذهم على حساب الباشوات، الذين حاولوا التخلص من هذا النفوذ والتقليل من حدة الصراع بين الطائفتين القويتين، وتجنيب البلاد الوقوع في متاهات خطيرة[2]، ولذلك قرر البايلرباي محمد باشا بن صالح رايس عام 1079هـ/1568م إصدار مرسوم سمح بموجبه للإنكشارية بالانضمام إلى البحرية ومشاركة الرياس في نشاطهم، وبالمقابل سمح للرياس بالانخراط في الصفوف الانكشارية والمساهمة معهم في جمع الضرائب[3]، هذا سمح باندماج الطائفتين داخل الهيئتين العسكريتين (البحرية والجيش البري) وإحداث توازن بينهما داخل أجهزة الحكم بالإيالة ولو إلى حين، إلا أن هذا الإجراء لم يمنع الإنكشارية من تعزيز نفوذهم، هذا ما جعل خصر باشا سنة 1004هـ/1596م يعتمد على الكراغلة للتقليص من نفوذ الإنكشارية ووضع حد لوصايتهم وسطوتهم، إلا أن محاولته باءت بالفشل، وأُرغم على قبول مشاركة أعضاء الديوان في السلطة معه ،لذلك كان الباشا يعلن القرارات على النحو التالي: «...نحن باشا وديوان ميليشيا الجزائر التي لا تغلب...» ولكي يحتفظ الباشا بمنصبه كان عليه أن يساير الديوان ويطبق قراراته.[4]

خلال القرن السابع عشر الميلادي تولى زمام السلطة في الجزائر رجال أقل كفاءة من الذين سبقوهم وفقدوا نفوذهم وسلطتهم لصالح الديوان، لذلك عمل الإنكشارية خلال هذه المرحلة السيطرة على الديوان واستغلاله لصالحهم، وزاد تدهور سلطة الباشا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي من تعزيز فرصة الديوان للسيطرة على الحكم، وجرد الباشا في الأخير من سلطة القرار وترك له دورا شكليا فقط.[5]

---

[1]- حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 110.

[2] - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص27.

[3] - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص128.

[4] - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص60.

[5] - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص128.

ما إن حلّ النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي حتى تضاعف عدد فرق اليولداش، هذا ما أعطى الإنكشارية قوة ونفوذا كبيرين، وزاد من تنافسهم على السلطة ومزاياها ، لذلك كثرت الخلافات فيما بينهم وزادت أعمال السلب والنهب والغطرسة ضد السكان المحليين وطائفة الكراغلة، هاته الأخيرة التي يرجع أول تكتل لها إلى عام 1004هـ/ 1596م، وذلك حينما حاول خضر باشا الاستنجاد بها للقضاء على عصيان الإنكشارية، الذين أدركوا منذ ذلك الحين خطر الكراغلة عنهم، خاصة وأنهم كانوا يمثلون نسبة لا بأس بها من مكونات الجيش البري، زيادة على ذلك كان أهل البلد سندا لهم لأن أمهاتهم من السكان المحليين، الذين حاولوا التعاون معهم من أجل انتزاع بعض الحقوق، وقد كانت تخوفات الإنكشارية في محلها، فمع حلول سنة حلول 1038هـ/1629م نظموا تمردا ضد الإنكشارية لطردهم من مدينة الجزائر، إلا أن رد فعل هؤلاء كان سريعا وحازما، واستطاعوا هزيمة الكراغلة وطردهم من مدينة الجزائر، وإحكام القبضة عليها فيما تفرق الكراغلة عبر العديد من مناطق الوطن.[1]

في سنة 1043هـ/1633م ثار الإنكشارية ضد حسين باشا، بسبب عجزه عن دفع مرتباتهم، لذلك استغل الكراغلة حالة الفوضى والاضطراب الحاصل في مدينة الجزائر وتسللوا إلى القصبة من أجل السيطرة على المدينة، إلا أن جنود الانكشارية تفطنوا لهذه الحركة وتصدوا لها بكل حزم وقوة، حيث ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، أسفرت في نهايتها عن فرار الكراغلة وعودتهم إلى المناطق التي كانوا يعيشون فيها بعد خروجهم من مدينة الجزائر سنة 1038هـ/1629م[2]، ومع حلول سنة 1069هـ/1659م اندلعت ثورة للدفاع عن حقوق الرياس الذين حرمهم إبراهيم باشا من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في البحر الأدرياتيكي، وقاموا بمهاجمة قصر الباشا وألقوا عليه القبض وأودعوه السجن بمهاجمة قصر الباشا وألقوا عليه القبض وأودعوه السجن، وفي هذا الوقت استغل الإنكشارية الفرصة وقاموا بالانقلاب على الرياس ثم استولوا على الحكم، واتفقوا على إسناده للآغا على أن لا تزيد مدة حكمه عن الشهرين.

نتج عن تغيير الأغوات اختلال في السلطة لأنهم كانوا عاجزين عن توفير الاستقرار الداخلي، وفي نفس الوقت كانوا عرضة لتمرد الرياس أو الإنكشارية أو القبائل[3]، وهكذا بقيت الأوضاع الداخلية مضطربة نتيجة هذه الصراعات داخل أجهزة الحكم، وأصبح القتل هو الإجراء الثابت بحق الأغاوات الأربعة– خليل آغا 1659–1660م، رمضان آغا 1660–1661م، شعبان آغا 1661–1665م، علي آغا 1665–1671م– الذين تعاقبوا على الحكم ما بين

[1] – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م ص 154.

[2] – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 112، 113.

[3] – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص129.

1069-1082هـ/1659-1671م، لتستمر الأوضاع على ما هي عليه طيلة هذا القرن الذي عرف صراعا مريرا بين الطائفتين على الحكم.[1]

وعموما أجمع المؤرخون على أن نظام الحكم العثماني تميز بأربعة مراحل هي:

أ-عهد البيلربايات (أمير الامراء) 1514 م – 1587م

تعد ولاية خير الدين البداية الحقيقية لهذا العصر فقام بتأسيس القوة البحرية والبرية، تعد بذلك من أزهى العصور الحكم التركي في الجزائر والذي عرف ازدهار في البلاد في نواحيها التعليمية والاقتصادية والعمرانية وذلك بفعل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر.

ب- عهد الباشوات 1587-1659م

ألغى السلطان العثماني رتبة البيلربايات واستبدلها بالباشوات وأصبح تعينهم كل ثلاث سنوات ولهذا كان الشغل الشاغل للباشا هو الانصراف إلى النهب والسلب لجمع الثروة قبل عودته إلى أسطول مما أدى إلى الثورة جنود البحرية على الباشوات وتقليص نفوذهم.

ج-عهد الأغوات 1959-1671م

يعتبر هذا العصر من اقصر العصور وانتشرت فيه الفوضى وكان الأغا يعين من طرف الجيش البري وهو منفصل عن العثمانيين بعد الثورة الجيش على الباشوات.

د- عهد الدايات1671 -1830م.

استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة وحاولوا إرضاء الملك العثماني وتقوية مراكز حكم الداي وتعيينه في منصبه مدى الحياة وكان يتم اختيار الداي بالانتخاب من الديوان العالي " المجلس" الذي صار بمثابة برلمان ، وكان ينحصر دور الحكام بإرسال فرمان بتعيينه وكان عصر الديات عصر القوة العسكرية ، حيث بنت الدولة جيشا قويا وكانت لها ميزانية مستقلة وكان الداي يعقد المعاهدات بأمر الجزائر ويبعث القناصل إلى الدول الكبرى.

2-نظام الحكم في الإيالة الطرابلسية خلال العهد العثماني.

[1] – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص67.

بدأ الحكم العثماني في طرابلس الغرب بعد تحريرها من طرف العثمانيين سنة 1551م على يد مراد أغا والذي كان أول شخصية تباشر الحكم في الإيالة الجديدة، إلاّ أن حكمه لم يدم أكثر من 5 سنوات ليتولى من بعده درغوت باشا سنة8ربيع الأول 903هـ/1556م، وقد بذل مجهودا كبيرا في تثبيت أركان الحكم العثماني في جميع أنحاء بلاد طرابلس الغرب، خاصة برقة وفزان، وقد سعى درغوث باشا ابتداء إلى توجيه أنظاره إلى داخل البلاد والمناطق المجاورة لها لبسط نفوذه، كما سعى لإقامة أحلاف مع الزعماء المحليين لتأكيد ارتباطهم بالدولة العلية العثمانية، وهذا ما يؤكد أن درغوث باشا لم تكن سياسته موجهة لمواجهة الأوربيين خارجيا والتصدي للخطر الإسباني وتعزيز المقاومة ضده، بل كذلك لمواجهة الأخطار الداخلية المتمثلة في التمردات بقيادة الزعامات المحلية وشيوخ الطرق الصوفية التي كان يعتمد عليها الحكام المحليين في بلاد المغرب لتثبيت الحكم العثماني.

كانت السلطة العثمانية تكثر من تغيير ولاتها في طرابلس الغرب،كما هو معمول به في كل الولايات العثمانية، وذلك خشية أن يفكر أي والي في الاستقلال عن السلطة المركزية باستانبول، لذا فقد تعاقب على حكم طرابلس عدد كبير من الولاة، وقد ترتب عن تغيير الولاة زيادة نفوذ الإنكشارية الذين استبدوا بالأمر،ما جعل الحكام يتقربون إليهم، فكانوا يظنون أنفسهم فوق سلطة القانون، ويعتبرون أنفسم طبقة مميزة لايمكن المساس بها من أي كان.

وقد ظل حكام طرابلس الغرب أقلية تحكم البلاد وتسيطر على خيراتها وثرواتها الكثيرة وأراضيها الواسعة دون أن يحاولوا إشراك أهل البلاد في الحكم أو محاولة النهوض بالميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، نظراً لاشتغالهم بالدفاع عن البلاد من الخطر الخارجي والقضاء على التمردات الداخلية التي أنهكت الحكام وحَدّت من محاولاتهم في الإصلاح والبناء، وما زاد الطين بلة شساعة البلاد وكثرة الصحراء بها مما تطلب جهودا مضنية وكبيرة لتعميرها، وبذلك أهدرت طاقات هائلة في هذه المشاكل الداخلية، وفوتت فرصة لنهضة حقيقية في البلاد .

كان حكم الإيالة الطرابلسية عن طريق "وال" يطلق عليه الـــ "باشا" يعينه السلطان العثماني مباشرة مع بسط العثمانيين نفوذهم على كافة أقاليم طرابلس الغرب(طرابلس وبرقة وفزان)، تشكلت في البلاد بوادر دولة حديثة، فقبل الفتح العثماني لم يكن هناك نظام حكم مركزي في البلاد، والحكم الفعلي بيد القبائل المنتشرة في مناطق مختلفة من البلاد . وإدارة الإيالة الجديدة كانت عن طريق "وال" يطلق عليه الـــ "باشا" يعينه السلطان العثماني مباشرة ويحظى بقبول الجيش الانكشاري، وتواصل هذا الأمر إلى غاية سنة 1711، عندما انشق أحد الضباط الانكشاريين يدعى أحمد باشا القره ما نلي، وأقام دولة تحت راية العثمانيين و استمر حكم سلالة أحمد القره مانلي حتى عام 1835.

وعموما يمكننا تقسيم فترة الحكم العثماني في طرابلس الغرب على النحو التالي:

-فترة حكم البيلرياي(العهد العثماني الأول) 1551-1606م

- فترة حكم الدايات 1606- 1711م.

- فترة حكم الأسرة القرمانلية 1711-1835م.

- فترة حكم الباشوات (العهد العثماني الثاني) 1835-1911م.

3-نظام الحكم في الإيالة التونسية خلال العهد العثماني.

بعدما استطاع سنان باشا تحرير البلاد التونسية من الاحتلال الإسباني، وقبل عودته إلى استانبول حاول وضع الأسس الأولى من أجل تثبيت الحكم العثماني، لذلك قام بتنصيب حاكما للبلاد ممثلا في حيدر باشا حاكم القيروان، الذي لعب دورا بارزا في عملية التحرير، ومنحه لقب باشا، وزوده بحامية عسكرية عثمانية تتكون من حوالي 4000 جندي انكشاري، وعين على رأس كل 100 منهم ضابطا يسمى (داي) وعين عليهم قائدا عاما يسمى آغا؛ فظ الأمن الداخلي وحماية البلاد من الخطر الخارجي الذي كان لازال يتهدد الإيالة الفتية، فيما قام بإسناد مهمة القضاء للعلامة حسين أفندي[1] للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وإجراء الأحكام الشرعية بينهم، وقام بإنشاء الديوان الذي كان يشبه ديوان الجزائر، بالإضافة إلى العديد من التنظيمات الإدارية الأخرى التي تخص الجيش والإدارة وتنظيم العلاقة بين السكان المحليين والسلطات الحاكمة الجديدة.

كان الإنكشارية يميلون إلى القوة والجفاء في تعاملهم مع الرعية ويرون أنفسهم الأسياد الحقيقيين للبلاد التونسية ، لذلك كثر ظلمهم وغابت العدالة والحق في التعامل مع الرعية، هذا ما ألب عليهم السكان المحليين وبعض الجنود الذين أعلنوا الثورة ضدهم في شهر ذي الحجة سنة 999هـ/1590م، وقاموا على إثرها بإزاحة البولكباشية من الحكم واستطاعوا السيطرة على القصبة، والقضاء على الكثير من قادة الجيش المتغطرسين، ولم ينج منهم إلاّ ثلاثة؛ قتلوا فيما بعد ورميت جثثهم في أزقة العاصمة تونس ليعتبر بهم كل من تسول له نفسه ممارسة الظلم والفساد.

وقد نتج عن هذه الثورة عدة قرارات، كان أبرزها:

- **إلغاء النظام السابق الذي وضعه سنان باشا.**
- **تقديم أحد الدايات لتولي حكم الإيالة، كانت له السلطة المطلقة للنظر في الشؤون المدنية والعسكرية.**

[1] - ألفونص روسو: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، نقلها ونقحها وحققها، محمد عبد الكريم الوافي، منشورات قار يونس، بنغازي، ليبيا، 1992م، ص 105

- الباشا يكون في المرتبة الثانية بعد الداي في سلم المسؤوليات (وقد جرد من جميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها سابقا).

- تحديد مهام الديوان والحد من صلاحياته، في مقابل ما أصبح يتمتع به الداي من صلاحيات ومهام.[1]

بعد هذه الثورة تولى حكم البلاد إبراهيم داي (1590–1592م) الذي عرف عنه الحكمة والصبر والرفق بالرعاية، وقد دام حكمه ثلاثة سنوات عرفت فيها الإيالة التونسية نوعا من الاستقرار والألفة بين الحاكم والرعية، ليقرر في النهاية التخلي عن الحكم وحج بيت الله الحرام، ليتجه فيما بعد إلى مسقط رأسه جزيرة رودس، ويتولى من بعده حكم الإيالة موسى داي في سنة 1001هـ/1592م، الذي حاول هو أيضا الانفراد بالحكم والاستبداد بالأمر، إلا أنه لم يستطع أمام قوة خصومه الذين حاولوا حبك الدسائس والمؤامرات ضده لإزاحته من الحكم، لذلك وعندما شعر بالخطر على حياته طلب الإذن بالحج نجاة بنفسه، فسُمح له بذلك و طُلب منه عدم العودة إلى البلاد مرة أخرى، ليخلفه فيما بعد أحد أحسن وأمهر القادة العسكريين المرافقين لسنان باشا، وهو عثمان داي، الذي لقي معارضة شديدة من طرف بعض الانكشارية بقيادة صفر داي، إلاّ أن الغلبة في النهاية كانت لعثمان داي الذي استطاع الانفراد بحكم البلاد سنة 1007هـ/1599م، وقد دام حكمه حوالي 12 سنة، حقق فيها الكثير من الإنجازات؛ أهمها ضم جزيرة جربة للإيالة التونسية سنة 1004هـ/1605م، وقام باستخلاف عاملا عليها اسمه الشيخ مسعود المومني[2]، بعدما ظلت بيد الباشوات الطرابلسيين منذ أن ضمها درغوت باشا سنة 960هـ/1553م.

عرفت الإيالة التونسية في عهد عثمان داي العديد من الإنجازات بفضل حنكته وبراعته في الحكم، فقد سن القوانين والتشريعات ونظّم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وأصدر الأوامر من أجل عثمان داي معاملة الرعية بالرفق والمساواة، ووجه عنايته لتعمير البلاد وبناء المؤسسات التعليمة والمعالم الحضارية، وحصّن البلاد وبنا الأبراج؛ لأنه كان يعلم ما يتهدد الإيالة الناشئة من الأخطار الأجنبية، وفي عهده قدم الأندلسيون إلى البلاد التونسية، أين استقبلهم بالقبول والترحاب، وفي ذلك يقول ابن أبي الدينار: «... وكثرت في أيامه غنائم البحر حتى كانت لا توصف، وفي أيامه كبر صيت محمد باي بن حسين باشا وكان قبطان البحر بغلائطه، وجر عدة غنائم مشهورة، وكان عثمان باي إذا جاءت غنائمه طلع إلى حلق الوادي وبيعت الغنيمة هناك فيقع للتجار ربح قوي، وفي أيامه جاء قبطان من بر النصارى وحصر ما بحلق الوادي من المراكب ومنعها من الخروج فخادعه عثمان داي إلى أن غدر به وأسره وسجنه بالقصبة وبها مات،...ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ويسمونها قوانين عثمان داي ...وفي هذه السنة والتي تليها

[1] – ألفونص روسو: المصدر السابق، ص 106.

[2] – أبوراس الجربي: المصدر السابق، ص ص 112، 116.

جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانيا وكانوا خلقاً كثيراً فوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعافهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ...».

يعتبر عثمان داي المؤسس الفعلي لنظام الدايات بسبب ما قدمه للبلاد التونسية من خدمات جليلة؛ سواء الإدارية أو التنظيمية أو السياسية أو العسكرية، وقبل أن يُكمل تلك الإنجازات توفي سنة1019هـ/1610م[1] ودفن بزاوية ابن عروس بالعاصمة تونس[2]، وبذلك لم يشاهد ما أنجزه الأندلسيين الذين وفر لهم الرعاية والاهتمام من أجل النهضة بالبلاد التونسية.

ويمكن تلخيص مراحل الحكم اثماني في تونس كما يلي:

- مرحلة حكم الدايات 1574م–1630م
- مرحلة حكم الأسرة المرادية1631–1705م.
- مرحلة حكم الأسرة الحسينية الأولى 1705– 1837م.
- مرحلة الأسرة الحسينية الثانية 1837–1881م.

4–نظام الحكم في المغرب الأقصى خلال فترة حكم السعديين والعلويين.

وصل المغرب الأقصى في عهد أحمد المنصور الذهبي إلى أوج قوته وازدهاره، فقد عرفت حدوده أقصى امتدادا لها؛ أين وصلت إلى السودان، وبذلك استطاع المنصور السيطرة على منابع الذهب واحتكار التجارة الصحراوية خاصة الطريق الرئيسي –مراكش، الدار البيضاء، تنبكتو.

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي بدأ المغرب الأقصى يدخل في نفق مظلم ،خاصة مع اشتداد الصراع على السلطة بين أبنائه ؛ مولاي زيدان الذي بايعه أهل فاس من جهة، ومحمد الشيخ المأمون وأبو فارس الذي بايعه أهل مراكش من جهة ثانية،ليحتدم الصراع حول الملك وصل إلى حد الاقتتال؛ حيث جرت معركة بين الطرفين في واد أم الربيع "موقعة الحواتة "سنة 1015هـ/1607م استطاع خلالها أبو فارس ومحمد الشيخ هزيمة مولاي زيدان والسيطرة على فاس، ليفر هذا الأخير إلى تلمسان التي استجمع فيها قواه، ليعود مرة ثانية ويسيطر على مدينة مراكش بعد ذلك، مما جعل محمد الشيخ المأمون يدعوا أهل فاس لبيعته، ثم وجه حملة عسكرية بقيادة ابنه عبد الله إلى مراكش للسيطرة عليها، وبعد أن تم له ذلك قام بعمليات نهب وسلب وقتل العديد من أعيانها، الأمر الذي أدى إلى ثورة السكان ضده مفضلين بيعة مولاي

[1] – ابن أبي الدينار: المصدر السابق، ص ص 192، 193.

[2] – حسين خوجة: المصدر السابق، ص 7.

زيدان مكانه، إلا أن وصول الدعم العسكري من فاس أدى إلى انتصار عبد الله بن محمد الشيخ على عمه زيدان، ليلتقي الطرفان مرة ثانية في معركة أبي الرقراق التي انتصر فيها مولاي زيدان، إلا أنه لم يستطع السيطرة على فاس، فيما فر محمد الشيخ إلى الإسبان ،وهكذا بدأت سلسلة من الحروب و المعارك بين الإخوة أتت على كل ما كانت تتمتع به البلاد من نفوذ وقوة، وفتحت بابا واسعا للعديد من الثورات والخلافات ،وكانت هذه الحروب بين أولاد منصور وأحفاده حروبا طاحنة لا هوادة فيها، الخاسر الأكبر منها أهل البلاد و خاصة سكان مراكش وفاس؛ فكلما استولى أحدهم على إحدى المدن التي كانت بيد خصمه أعمل في رقاب أهلها السيف وتركها عرضة للنهب والسلب، وهكذا ظل الإخوة الثلاث يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يستقر الأمر لواحد منهم .

وفي الأخير استقر الأمر بقيام مملكتين سعديتين؛ إحداهما بفاس على رأسها المأمون والثانية بمراكش على رأسها زيدان الذي كان في نظر الأوربيين وقسم من السكان المحليين هو السلطان الشرعي؛ لأنه سيد عاصمة السعديين مراكش.

استعان المأمون خلال الصراع على السلطة بالإسبان مقابل تسليمهم العرائش، مما أثار مشاعر المغاربة وغضبهم، لهذا لم يطل عمر مملكة فاس طويلا حيث انتهت سنة 1626م، أما مملكة مراكش فقد واجهت مصاعبا عديدة من القوى الصوفية التي سيطرت على الجنوب، كما كان نشوب الصراع بين أولاد زيدان الذين قتل بعضهم البعض الآخر دورا في إضعاف هذه الدولة، لتنتهي سنة 1659م بسيطرة عرب سنبانات على مراكش بعد قتل آخر سلاطين السعديين أبي العباس أحمد.

ولما كان المغرب الأقصى بموقعه الاستراتيجي المتميز والقريب من أوربا، فقد اتجهت إليه أنظار البرتغاليين والإسبان، الذين أخذوا في احتلال سواحله الواحدة تلوا الأخرى، مستغلين الأوضاع الداخلية المتدهورة بسبب ضعف السلطة المركزية بفاس وصراع أبناء المنصور وأحفاده على السلطة، وما أعقبه من الفوضى والاضطرابات، وقد كان من أخطر مضاعفاتها أن مناطق في الشرق والغرب من البلاد تعرضت لهجمات خارجية، فالباشوات بالجزائر بسطوا سيطرتهم على مناطق بالشرق وتمركزوا بوجدة تمهيداً للتدخل فيما جاورها، واغتنم الإسبان بدورهم فرصة الحروب الأهلية ـــــ خاصة الأطراف المحتاجة إلى الأسلحة و العتاد للقتال ـــــ و هاجموا السواحل المغربية؛ العرائش، المعمورة وأصيلا، مما أعاد إلى الأذهان العهود المظلمة للتنافس الاستعماري البرتغالي الإسباني لبلاد المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة، إلا أن مقتل عبد الله أبي فارس سنة 1017هـ،ومحمد الشيخ سنة(1022هـ)،ساعد مولاي زيدان داخليا على تنظيم أمور الدولة ولو مؤقتا، أما خارجيا فقد بدأ في تنظيم المقاومة ضد الإسبان بقيادة سيدي محمد العياشي، ومع ذلك فإن هذه المجهودات في تنظيم الدولة وقتال المحتلين الإسبان لم تعمر طويلا، لأنه بعد وفاة السلطان زيدان ذهبت معه هيبة السعديين في أعين العامة، وظهر الطامعون يعلنون خروجهم و يستقلون تدريجاً بمناطق نفوذهم، وبذلك بدأ سلطان السعديين ينحصر بمراكش

وما حولها، خاصـــة خلال الثلاثين ســـنة الأخيرة من عمر الدولة؛ زمن حكم عبد الملك (1037–1040هـ)،الوليد(1040–1045هـ) محمد الشـــيخ (1045–1064هـ)،ابنه أحمد (1064–1069هـ)، وبانهيار الدولة بدأت تظهر الزعامات المحلية كمنقذين للبلد من هذه الأوضاع المتدهورة، ومن أبرز هذه الزعامات :

- بودميعة، بسوس ودرعه والصحراء وبلاد السودان.
- العياشي، بالسواحل المغربية الأطلسية.
- محمد الحاج الدلائي، بالمنطقة الوسطى بالمغرب.

بظهور هذه الإمارات المتنازعة قســمت البلاد إلى وحدات ســياســية متناحرة فيما بينها، وازدادت الاصــطدامات العسكرية بينها، وفي ظل هذه الأوضاع المتأزمة كانت البلاد في حاجة لمخلص ينقذها من الحالة المتدهورة التي وصلت إليها ولم تنته إلاّ بظهور العلويين وتأسيس دولتهم ببلاد المغرب الأقصى سنة 1079هـ بقيادة مولاي الرشيد، حيث دانت لهم جميع الإمارات بالمغرب الأقصى، وكانت آخر إمارة دانت لهم بالولاء والطاعة بلاد السوس سنة 1081 هـ/1670م.

خاتمة.

1- كان الهدف الأساسي للإسبان طرد المسلمين من بلادهم مهما كان الثمن منذ أن توقف زحف الفاتحين في معركة بلاط الشهداء سنة 123هـــ واستشهاد عبد الرحمن الغافقي، وبذلك انتهى حلم المسلمين في مواصلة الفتوحات، لتتبخر أحلامهم نهائيا بعد انهزامهم في معركة كابدانخا بقيادة الراهب بيلايو معلنا بذلك بداية النهاية للمســـلمين، بالرغم من بقائهم حوالي ثمانية قرون أخرى، لتتحقق أحلامهم ســـنة 1492م باحتلال غرناطة وطرد آخر حكامها أبي عبد الله الغرناطي، وبذلك تمت الوحدة الإسبانية الفعلية ابتداء من هذا التاريخ.

2- شــكلت بلاد المغرب الإســلامي حلقة الصــراع الثانية بعد الأندلس، لأنه ولأول مرة تنقل المعارك إلى الســواحل المغاربية منذ الفتح الإسلامي سنة 91هـــ، وبذلك استطاع الإسبان رد الصاع صاعين للسكان المغاربة المساهمين بفعالية لا نظير لها في فتح الأندلس، والانتقام منهم جزاء لهم على فعلهم هذا.

3- ساهم التفكك والتجزؤ والانهيار السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي عاشته بلاد المغرب الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بقسط وافر في تفكير الإسبان في احتلال سواحله، خاصة بعد انشغال حكام دويلاته –المرينية، الزيانية، الحفصية–بخلافاتهم الداخلية والاستئثار بمزايا الحكم، متناسين زحف الإسبان على إمارة غرناطة واحتلالها وهذا ما كان يدل على أن الدور قادم عليهم لا محالة.

4- كان ظهور الإخوة بربروس بالسواحل المغاربية بمثابة بارقة الأمل التي انتظرها السكان المحليون طويلا، والذين كرهوا ممارسات حكامهم المتنازعين فيما بينهم والمنبطحين للإسبان، الذين احتلوا سواحل بلادهم الواحد تلوى الآخر، وأمام فشل هؤلاء الحكام تدخل الإخوة بربروس لإزاحتهم من على عروشهم وأخذ أماكنهم بمساعدة السكان المحليين أنفسهم، خاصة وأن الإخوة بربروس جاءوا بفكرة الجهاد وتخليص العباد والبلاد من الظلم والاحتلال.

5- أدى ظهور الإخوة بربروس ببلاد المغرب إلى إفشال المشاريع الإسبانية بالمنطقة وإعادة التوازن إليها بعد أن كانت في حالة استسلام تام، ثم أصبحت في حالة دفاع ومن بعدها في حالة هجوم. وتحرير العديد من السواحل المغاربية.

6- كان الصراع بين الدول المغاربية والإمبراطورية الإسبانية امتدادا لذلك الصراع الإسلامي المسيحي، والذي بدأ منذ تأسيس الدولة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ومازال متواصلا إلى يوم الناس هذا.

7- شكلت الدول المغاربية الصخرة التي تحطمت أمامها جميع المخططات الإسبانية والأوروبية الرامية إلى تنصير السكان المحليين واحتلال بلادهم ونهب خيراتها، حيث صمدت هذه البلاد حوالي ثلاثة قرون ونصف من الزمن إلى أن جاء الاحتلال الفرنسي وواصل مهمة الإسبان، وهذا خير دليل على أن هدف الأوروبيين مهما كانت اختلافاتهم احتلال هذه المنطقة بأي ثمن.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
البسملة	02
مقدمة	03
أولا: سقوط إمارة غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية.	05
ثانيا: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15 م ومطلع القرن 16 م.	09
1- أوضاع المغرب الأوسط بداية القرن 10هـ/16م.	09
1-1-الأوضاع السياسية.	09
1-2-الأوضاع الاقتصادية.	11
1-3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.	12
2-أوضاع طرابلس الغرب بداية القرن 10هـ/16م.	14
2-1-الأوضاع السياسية.	14
2-2-الأوضاع الاقتصادية.	17
2-3-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.	20

3: أوضاع البلاد التونسية بداية القرن 10هـ/16م.	25
3-1-الأوضاع السياسية.	25
3-2-ظهور الإخوة بربروس على السواحل التونسية "حلق الوادي".	27
3-3-الأوضاع الاقتصادية.	29
3-4-الأوضاع الاجتماعية والثقافية.	36
ثالثا-المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط.	42
رابعا: ظروف إلحاق الدول المغاربية (المغرب الأوسط، طرابلس الغرب، تونس) بالدولة العلية العثمانية.	47
1-انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العلية العثمانية سنة926ه/1520م.	47
2-إنضمام طرابلس الغرب إلى الدولة العلية العثمانية سنة958هـ/ 1551م.	48
3-إلحاق البلاد التونسية بالدولة العلية العثمانية سنة 1574م.	50

خامسا: تطور نظام الحكم في البلاد المغاربية.	53
1-نظام الحكم في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني.	53
2-نظام الحكم في الإيالة الطرابلسية خلال العهد العثماني.	55
3-نظام الحكم في الإيالة التونسية خلال العهد العثماني.	57
4-نظام الحكم في المغرب الأقصى خلال فترة حكم السعديين والعلويين.	59
خاتمة	61